﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

الإصلاح

لا يُصلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّة إلاّ مَا أَصْلَحَ أَوَّلَـهَا

مجلة جامعة

تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

دار الفضيلة

عنوان المجلة:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو.

المحمدية. الجزائر

الهاتف والفاكس:

(021) 51 94 63

التوزيع (جوال): (0661) 62 53 08

البريد الإلكتروني:

darelfadhila@maktoob.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:

www.rayatalislah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الأخ المكرم رئيس تحرير مجلة "الإصلاح" في الجزائر
حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد، تلقيت رسالتكم المؤرخة: ١٤٣١/٤/٥هـ المرفق بها نسخة من العدد التاسع عشر من مجلة "الإصلاح"، وإني لأشكركم والقائمين على المجلة على اهتمامكم وعنايتكم بالدعوة إلى الله ونشر المقالات الجيدة المفيدة.

وأسأل الله عز وجل أن يتولى الجميع بتوفيقه.

١٤٣١/٤/١٦هـ عبد المحسن بن حمد العباد البدر

قوم لا يشقى بهم جليسهم

جـاء في «الطَّبقـات الكبير» لابن سعد عن ابن عبَّاس ç أنَّه قال لسعيد بن جبـير : : حدِّث؛ فقال: أُحدِّثُ وأنتَ ها هُنـا؟! قال: أَوَ ليس من نِعمة الله عليكَ أن تتحدَّث وأنا شاهدٌ، فإن أصبتَ فذاك، وإن أخطأتَ علَّمتُك.

فمـن نعمة الله على طَلبة العلم والدُّعـاة إلى الله أن يكونَ بين ظهرانيهم العُلماء الرَّبَّانيُّون الَّذين يشهَدون على من دونَهم في العِلم، ليقال لمن أصابَ: أصبت وأحسنتَ، ولمن أخطأ: أخطأتَ ويُعلَّم ويردُّ للَّتي هي أقوم، فالعلماء حُرَّاس الدِّين وحفَظَة الشَّريعة، وهم القوم الَّذين لا يشقَى بهم جليسٌ ولا متعلِّمٌ ولا مستشيرٌ ولا مستنصحٌ.

وعمـلا بهذا المنهج القويم كنَّا نحرص دائمًا على إطلاع بعض أهل العِلم النُّبلاء على كلِّ عدد جديد من مجلَّتنا، لنَظفر منهم بمُشاركة برأيٍ أو نصح أو توجيه أو مقال، فـ«البَرَكَـةُ مَـعَ أَكَابِرِكُمْ». كما قال النَّبـيُّ ا .. وكم سَعدنا لمَّا تجـاوب معنا هذه المرَّة شيخـان جليلان مـن أرض الحجاز، أحدهمـا شيخنا الشَّيخ ربيع بن هـادي المدخَلي. حفظه الله ورعاه. الَّذي أرسل إلينا مقالًا لم يسبق له وأن نُشر، وثانيهما شيخنا الشَّيخ عبد المحسن بن حمد العبَّاد البَدر. حفظه الله ورعاه. الَّذي أرسلَ إلينا كلمةً يفرح أمثالنا بمثلها، ويحفِّزنا على المُضيِّ قُدُمًا فيما نحن فيه. فجزاه الله عنَّا كلَّ خير وفَضل.، وقد رأينَا أن نُشرك قرَّاءنا الكرام في الاطِّلاع عليها؛ لما في ذلك من الفائدة العُظمى للجَميع، فإليكموها:

حضرة الأخ المكرَّم رئيس تحرير مجلَّة الإصلاح في الجزائر.

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعـد، تلقَّيت رسالتكـم المؤرَّخة: 1431/4/5هـ، المرفق بها نسخـة من العدد التَّاسع عشر من مجلَّة الإصلاح، وإنِّي لأشكركم والقائمين على المجلَّة على اهتمامكم وعنايتكـم بالدَّعوة إلى الله ونشر المقالات الجيِّـدة المفيدة، وأسأل الله. عزَّ وجلَّ. أن يتولَّى الجميع بتوفيقه، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

1431/4/16هـ. عبد المحسن بن حمد العباد البدر

كما لا يفوتني أن أذكِّر بشيخ فاضل نبيل كنَّا نتواصل معه بالمدينة النَّبويَّة، وكان حريصًـا على متابعة أعـداد مجلَّتنا، وهو الشَّيخ الدُّكتور يوسـف الدَّخيل الَّذي وافته المنيَّة بعد صدور العدد التَّاسع عشر، فرحمه الله رحمةً واسعة.

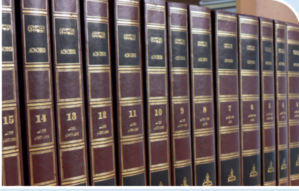
مدير المجلة

في هذا العدد



التحرير

بين الأمانة والخيانة



أ.د. محمد علي فركوس

نصوص عقدية لابن باديس ومنهجه في تقرير أسماء الله وصفاته



د. ربيع بن هادي المدخلي

بيان ضعف ونكارة قصة سجود معاذ للنبي ﷺ



عمار تمالت

جديد المخطوطات المطبوعة



د.عبد المجيد جمعة

كشف الوجه الصبيح في فوائد قصة الذبيح



عز الدين رمضاني

مدرسة دار الحديث بتلمسان
كما أرادها الشَّيخ البشير الإبراهيمي

العدد السابق



قواعد النشر في المجلة

- أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحرَّر المقال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكر صاحب المقال اسمه الكامل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.

الافتتاحية

بين الأمانة والخيانة

التحرير

إنّ صفة الأمانة من أعظم الصِّفات الَّتي امتاز بها أهل الحقِّ عن أهل الباطل، ذلك لأنَّ المتَّصف بها يحتاج إلى تجريد التَّوحيد لله ربِّ العالمين، وإفراد الاتِّباع لنبيِّنا محمَّد الأمين ﷺ.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ [الأحزاب]. والأمانة المعروضة هي أمانة التَّكاليف، من امتثال الأوامر، واجتناب النَّواهي، مع ما يتبعها من ثواب وعقاب، وهي بالمعنى الواسع كلُّ ما يحمله الإنسان ويتحمَّله من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، وهذا يعمُّ جميع الأمانات الحسيَّة والمعنويَّة.

فإذا قام العبد بما تحمَّله وأدَّاه لله حسب طاقته ووسعه، ونهض بالأمانة المنوطة بعنقه، وأدَّاها على وجهها، كان محلَّ تكريم ربِّه له، وتفضيله على كثير ممَّن خلق تفضيلاً، إذ حمل ـ مع جهله وظلمه ـ ما أشفقت وخافت من حمله السَّماوات والأرض والجبال.

وأوَّل ما تشمل كلمة الأمانة، أداء حقِّ الله ﷻ في إفراده بالعبادة، وعدم الإشراك به، ثمَّ أداء الفرائض الَّتي فرضها على العباد، وغيرها من التَّكاليف الشَّرعية، أداءً كاملاً وخالصًا له ﷻ غيرَ مشوبٍ برياءٍ ولا سمعة، موافقًا لسنَّة النَّبيِّ المصطفى ﷺ.

ونبيُّنا ﷺ قد عُرف ـ في الجاهليَّة ـ بين ناسه وأهله وعشيرته وقومه بالأمين كما هو معلوم من سيرته العطرة، فكانوا يأتمنونه على الأموال وغيرها، لصدقه ووفائه ﷺ، والنَّاس يميلون إلى الأمين ميلاً طبيعيًّا فطريًّا، لما جبلت عليه النُّفوس من الوثوق بالأمناء، والارتياح لهم، وهذا عامٌّ في البشر كلِّهم.

ولمَّا قدم أَهْلُ الْيَمَنِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا: ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلاً يُعَلِّمْنَا السُّنَّةَ وَالإِسْلاَمَ. قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ فَقَالَ: «**هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ**» [مسلم (2419)].

فالنَّاس مؤمنُهم وكافرُهم يتشوَّفون إلى الأمين في التَّعامل، وذلك لما للأمين من الأثر الطَّيِّب إذا تعامل مع النَّاس أو دعاهم إلى الهدى ودين الحقِّ، ولما له من الهيبة والاحترام والتَّقدير عندهم، كيف لا، وقد استقرَّ في أذهان العقلاء أنَّ الأمينَ لا يُخوَّن، وأنَّ الخائن لا يؤتمن.

فالَّذي يعلِّمُ النَّاسَ الإسلامَ والسُّنَّةَ، ويدعو إليهما، عليه أن يكون **قويًّا بعلمه وثباته على الحقِّ والصَّدع به، أمينًا في دينه وعقيدته ومنهجه**، وأن تكون دعوته إلى الله ﷻ على هدى وبصيرة، قد سلمت نفسه من علائق الدُّنيا، وحظوظ النَّفس، ودواعي الهوى.

ذلك لأنَّ العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء والرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام هم أمناء الله على دينه وشرعه، فوجب أن يكون الدُّعاة إلى الله ﷻ هم الأمناء من بعدهم على هذا الحظِّ الوافر والميراث العظيم.

ولهذا كان خلقُ الأمانة أحدَ أركان الأخلاق السَّامية في الإسلام الَّتي عليها المرتكز، ومن أعزِّ ما يحرص المرءُ على الاتِّصاف به، ثمَّ لا يضرُّه ـ بعد ذلك ـ ما فاته من الدُّنيا، قال نبيُّنا ﷺ: «**أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلاَ عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ أَمَانَةٍ، وَصِدْقُ حَدِيثٍ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وَعِفَّةٌ فِي طُعْمَةٍ**» [أحمد (177/2)].

والأمانة من الإيمان، كما قال ﷺ: «**لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ**» [أحمد (38321)]، ولا يمكن أن تكون الأمانة بغير تقوى لله ﷻ، ولهذا من رام صنعَ رجالٍ أمناء دون تعويلٍ على التَّقوى، وتأسيس عليها، فقد رام محالاً من الطَّلب، وفي

القرآن الإشارة إلى هذا، ففي باب المعاملات الماليَّة قال الله y : ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة : 283] فالتَّقوى هي المانعة من بخس حقوق الآخرين، والعبث بممتلكاتهم، وتضييع الأمانات والتَّهاون أو التَّفريط في حفظها وأدائها، لأنَّ المؤمن التَّقيَّ أحرصُ النَّاس على أموال غيره، ائتمانًا وحفظًا وأداءً، وكذلك الشَّأنُ في أعراض المسلمين، فقد جاء في القرآن الكريم ما يدلُّ عليها أيضا، قال y على لسان مريم عليها السَّلام: ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾ [مريم].

فالمؤمن التَّقيُّ لا ينتهك أعراض المسلمين والمسلمات، فضلاً عن حرمات الجيران والجارات، قال أ : «**لا يَسْتَقِيمُ إيمانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ ولا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسانُهُ ولا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوائِقَهُ**» [أحمد (13048)].

والمؤمن التَّقيُّ لا يلطِّخ يده بدم مسلم، أو كافر مؤتمن أو معاهد، ممن عصمَ الإسلامُ دمه إلاَّ بحقِّه. قال أ : «**والْمُؤْمِنُ مَنْ آمَنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ**» وقال أ : «**مَنْ قَتَلَ مُعاهَدًا في غَيْرِ كُنْهِهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**» [أبو داود (2760)].

هذا حال المؤمن حقًّا، لا يخاف النَّاسُ منه غيلة ولا خداعًا ولا خيانة ولا شرًّا، وقد ذكر النَّبيُّ أ خمسةً من أهل النَّار منهم «... **والخائِنُ الَّذي لا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وإِنْ دَقَّ إِلاَّ خانَهُ وَرَجُلٌ لا يُصْبِحُ وَلا يُمْسي إِلاَّ وَهُوَ يُخادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمالِكَ**...» [مسلم (2865)].

والَّذي صارت الأمانة صفةً ملازمة له، تراه يؤدِّيها ولو للَّذي خانه، لا يقابله بالمثل لقبح الخيانة، فهي من صفات المنافقين، وهي خديعة في موطن ائتمان، لا تليق بحال أهل الإيمان، قال أ : «**أَدِّ الأَمانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ وَلا تَخُنْ مَنْ خانَكَ**» [أبو داود (3535)].

ولم تُعرف أمَّةٌ بالخيانة ونقض العهود والمواثيق كما عرفت بنو إسرائيل، فينبغي التَّنزُّه عن مشابهة اليهود في أخصِّ أوصافهم، خاصَّة ممَّن يرفع الشِّعارات البرَّاقة ويتباكى على فلسطين الحبيبة في مختلف الخرجات الإعلاميَّة، والمناسبات الدَّوريَّة؛ لأنَّ دفاع الله y عن المؤمنين، إنَّما يكون للقائمين بحقِّ الله ثمَّ بحقوق العباد، المحافظين على الأمانات، المؤدِّين لها، والموفين بالعقود والعهود، فهؤلاء هم المنصورون الموفَّقون في دعوتهم، أمَّا الَّذين خانوا الله ورسوله، بترك ما أوجبه الله عليهم، وفعْل ما نهاهم عنه، فهؤلاء لا ينصرهم الله ولا يهديهم سبيلاً، قال الله y : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٧﴾ [الأنفال]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [الحج]، وقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾ [يوسف].

وليُعلم أنَّ خيانة الوجيه ليست كخيانة الوضيع، وخيانة المسؤول الكبير ليست كخيانة العامل الصغير، وخيانة العالم ليست كخيانة الجاهل، وظهورُ كلٍّ هذا في الأمَّة أمارة فساد وانقلاب للموازين، ينبئ عن قرب السَّاعة ودنوِّها، قال نبيُّنا أ : «**سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَواتٌ خَدَّاعاتٌ يُصَدَّقُ فيها الْكاذِبُ وَيُكَذَّبُ فيها الصَّادِقُ وَيُؤْتَمَنُ فيها الْخائِنُ وَيُخَوَّنُ فيها الأَمينُ وَيَنْطِقُ فيها الرُّوَيْبِضَةُ، قيل: وَما الرُّوَيْبِضَةُ؟ قال: الرَّجُلُ التَّافِهُ يَتَكَلَّمُ في أَمْرِ العامَّةِ**» [أحمد (2 / 291)، وابن ماجه (4042)].

وقال أ : «**إذا ضُيِّعَتِ الأَمانَةُ فانْتَظِرِ السَّاعَةَ**»، قال: كَيْفَ إضاعَتُها يا رَسُولَ اللَّهِ قال: «**إذا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلى غَيْرِ أَهْلِهِ، فانْتَظِرِ السَّاعَةَ**». [البخاري (6496) أي: فُوِّض الحكم المتعلِّق بالدِّين إلى من ليس له بأهل، فسوِّد وشرِّف من لا يستحقُّ السِّيادة والشَّرف.

ومن لطائف تبويبات الإمام البخاري : في «صحيحه» أن جعل هذا الحديث في كتاب العلم، إشارةً منه إلى أنَّ إسناد الأمر إلى غير أهله إنَّما يكون عند غلبة الجهل، ورفع العلم.

وللأمانة صور كثيرة، كما للخيانة مثل ذلك، وإنما هذا تنويه بشأنها، وتذكير بأمرها، ليُعلم أنَّ الاستخلاف الواعد للمؤمنين ما هو إلاَّ ثمرة لإيمانهم الصَّادق بالله y، وإيثارهم محابَّ الله ورسوله أ على ما تهوى أنفسهم، وما هو إلاَّ ثمرة لعملهم الصَّالح المبنيِّ على العلم النَّافع الصَّحيح، والموافق لهدي النَّبيِّ أ، وقول السَّلف الرَّجيح، إذ ليس الاستخلاف مقصودًا لذاته، بل هو وسيلة لقيام المؤمنين بأعظم الأمانات وهي: حقُّ الله y على العبيد في إفراده بالعبادة والتَّوحيد.

والله الهادي إلى الطَّريق الرَّشيد.



كشف الوجه الصَّبيح في
فوائد قصة الذبيح

د/ عبد المجيد جمعة
أستاذ محاضر بجامعة الأمير عبد القادر ـ قسنطينة

إنّ الله تعالى ذكر قصص أنبيائه ورسله، لنأخذ منها العبرة والعظة، ونستخلص منها الذّكرى والموعظة، فقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١١١ ﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ]، **وإنَّ من أبرز هذه القصص، قصَّة إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السَّلام.**

وذلك أنَّ إبراهيم عليه السَّلام دعا قومه إلى توحيد الله تعالى وترك عبادة الأصنام، فلمَّا لم يستجيبوا له، أراد أن يقيمَ عليهم الحجَّةَ، ويبيِّنَ لهُم أنَّ هذه الأصنامَ لا تنفع ولا تضرُّ، بل هي عاجزة عن نفع نفسها ودفع الضَّررِ عنها، فكيف تنفع من يعبدها؟! فجعلها حطاما.

فلمَّا أقام عليهم الحجَّةَ همُّوا بإحراقه بالنَّار، فأنجاه الله تعالى منها، وأظهره عليهم، فلمَّا نصره الله تعالى على قومه، وأيس من إيمانهم، تركهم وهاجر من بَيْنِ أظهرهم، فسأل ربَّه أن يَهَبَه ولدًا صالحًا، عوضًا عن قومه، ويؤنسه في غربته، ويعينُه على طاعة ربِّه والدَّعوةِ إلى دينه. فاستجابَ اللهُ دعاءَه فَرَزَقَهُ ولدًا صالحًا، فأحبَّه وقرَّت عينُه، وتعلّق قلبُه به، ثمَّ أمره الله تعالى بذَبحه بيده، وهنا تتجلَّى الحكمةُ من القصَّة، وذلك أنَّ أَصْلَ التَّوحيدِ بل لبّه وروحه هو محبَّةُ اللهِ تعالى، ولهذا كان رأسَ الإيمان الحبُّ في الله والبغضُ في الله، وكان من أحبَّ لله وأبغضَ لله، وأعطى لله ومنع لله فقد اسْتكمَلَ الإيمانَ، وأصلُ المحبَّة التِّي أمرَ اللهُ بها وخلَق خلقَه لأَجْلِهَا، إذ العبادةُ متَضَمِّنَةٌ لغايةِ الحُبِّ غاية الذُلِّ، فهذه المحبَّةُ يجب أنْ تكونَ خالصةً للهِ وحدَه، لا تشوبُها شائبَةٌ، ولا يزاحِمُها مُزاحِم.

فابتَلَى اللهُ تعالى إبراهيمَ في محبَّتِه له سبحانه، وإيثارِها وتقديمِها على محبَّةِ ابنِه، فأمره بذَبْحِه في محبَّة اللهِ تعالى، حتَّى يكونَ اللهُ أحبَّ إليه من ابنِه، ويبلغَ كمالَ المحبَّةِ ومرتبةَ الخُلّة، فلمَّا حصَلَ المطْلُوبُ فَداهُ اللهُ بذِبْحٍ عظيمٍ.

● **قال الإمام ابن القيم**: في «**جلاء الأفهام**» (ص274):

«ولما اتَّخذه ربُّه خليلاً؛ والخَلّة هي كمال المحبَّة، وهي مرتبة لا تَقبَلُ المشاركةَ والمزاحمةَ، وكان قد سأل ربَّه أن يهَبَ له ولدًا صالحًا، فوهَب له إِسماعيلَ، فأخذ هذا الولدُ شعبةً من قلْبه، فغار الخليلُ على قلب خليلِه أن يكونَ فيه مكانٌ لغيرِه، فامتحَنَه بذَبْحِه ليظهرَ سرُّ الخَلّة في تقديمه محبّةَ خليلِه على محبَّةِ ولده، فلمَّا استسلم لأمر ربّه، وعزم على فعله، وظهر سلطان الخَلَّة في الإقدام على ذبح الولد إيثارًا لمحبَّة خليله على محبّته، نسخ الله ذلك عنه، وفداه بالذِّبح العظيم؛ لأنَّ المصلحة في الذَّبح كانت ناشئةً من العزم وتوطين النَّفس على ما أمر به، فلمَّا حصلت هذه المصلحة، عاد الذَّبح مفسدة، فنُسخ في حقِّه، فصارت الذَّبائح والقرابين من الهدايا والضَّحايا سُنَّة في اتّباعه إلى يوم القيامة».

في رحاب القرآن



● قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [سورة الصافات].

فقد تضمَّنت هذه الآيات درر الفوائد وغرر الفرائد، فاقتنصت هذه الشَّوارد، من تضاعيف كتب الأماجد، لبلوغ مرام المقاصد، فجمعت أنواع الموائد، ـ فوائد عقديَّة، أصوليَّة، فقهيَّة، علميَّة، تربويَّة ـ بصريح العبارة، أو بدلالة الإشارة ـ وهي من ألطف الدّلالات ـ، مع الاعتراف بالتَّقصير، والله المستعان، وعليه التّكلان.

الفائدة الأولى: فيه وجوب الهجرة من دار الشِّرك والكفر إلى دار التَّوحيد والإيمان، ومن دار المعصية إلى دار الطَّاعة.

فقد هاجر إبراهيم من بلد قومه إلى حيث يتمكَّن من عبادة ربِّه، وقال كما في آية أخرى: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت: 26]، ويلحق بهذا الهجرة من دار البدعة إلى دار السُّنة، قال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: لا يحلُّ لأحد أن يقيم ببلد سُبَّ فيها السَّلف[1].

الفائدة الثَّانية: وفيه دليل على مشروعيَّة الهجرة والفرار من المكان الَّذي يكثر فيه الأعداء، ويخشى فيها الإذاية في الدِّين أو البدن، وذلك أنَّ إبراهيم عليه السَّلام لمَّا أحسَّ العداوة الشَّديدة من قومه حيث أضرموا النَّار وألقوه فيها، فلمَّا نجَّاه الله تعالى منها هاجر، وقد قال تعالى عن نبيِّه موسى عليه السَّلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: 21]، وقال أيضا: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة القصص]، ولهذا أمر النَّبيُّ ﷺ بالهجرة من مكَّة لمَّا اشتدَّت إذاية المشركين له.

الفائدة الثَّالثة: وفيه أنَّ المهاجِر ينبغي أن تكونَ هجرته لله، ويكون عملُه له وحده، لقوله تعالى: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: 99].

ويشهد لهذا قوله ﷺ: «**إنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَات وَإنَّمَا لكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلىالله وَرَسُوله فَهجْرَتُهُ للَّه وَرَسُوله وَمَنْ كَانَتْ هجْرَتُهُ إلَى دُنْيَا يُصيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكحُهَا فَهجْرَتُهُ إلَى مَا هَاجَرَ إلَيْه**» متفق عليه.

الفائدة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: 99] إشارة إلى أقسام التَّوحيد الثَّلاثة: فقوله: ﴿رَبِّي﴾، تضمَّن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصِّفات، حيث أقرَّ بربوبيَّة الله تعالى عليه، مستعملا اسما من أسمائه تعالى، وهو «الرَّبُّ»؛ وقوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ تضمَّن توحيد الإلهيَّة، حيث دعا الله تعالى أن يهديَه، والدُّعاء هو العبادة.

الفائدة الخامسة: وفيه سؤال الله تعالى بأسمائه بحسب ما يقتضيه المقام، ولهذا لم يقل إبراهيم: إنِّي ذاهب إلى الله، بل قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾، ولم يقل: اللهم هب لي، بل قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾؛ لأنَّه في موضع يفتقر فيه إلى الرُّبوبيَّة، إذ الرَّبُّ هو القائم على هدايته، المدبِّر لأمره، ولهذا لا يقول الدَّاعي: اللَّهمَّ ارزقني يا قابض، ولا: اللَّهمَّ اغفرلي وارحمني يا عزيز يا جبار، بل يقول: اللهم ارزقني يا رزاق، واللهم اغفرلي وارحمني يا غفور يا رحيم ونحو ذلك.

(1) «أحكام القرآن» لابن العربي (484/1).

الفائدة السادسة: وفيه التودُّد إلى الله تعالى والافتقار إليه وإظهار احتياجه إليه، وسؤاله الهداية والتوفيق، فحاجته إلى ذلك فوق حاجته إلى طعامه وشرابه بل الهواء الذي يتنفَّسه؛ لأنَّ ذلك يتضمَّن حصولَ كلِّ خير والسَّلامة من كلِّ شرٍّ، ولهذا أمرنا تعالى أن نسأله إيَّاها في كلِّ ركعة من صلاتنا عند قراءة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞﴾ [سُورَةُ الفَاتِحَةِ].

الفائدة السابعة: وفيه إخلاص الدُّعاء لله تعالى، لقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾.

الفائدة الثامنة: وفيه استحباب طلب الولد الصَّالح، لأنَّ نعمة الولد تكون في صلاحه، فإنَّ صلاح الأبناء قُرَّةُ عين للآباء.

الفائدة التاسعة: وفيه تفضيل الذكور على البنات، لقوله: ﴿هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ثمَّ قال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾، وهذه البشارة تدلُّ على أنَّه مبشَّر بابنٍ ذكرٍ، وقد قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران :36].

الفائدة العاشرة: وفيه الحثُّ على الزَّواج، لأنَّه الوسيلة الوحيدة في جلب الأولاد.

الفائدة الحادية عشر: وفيه الحثُّ على مصاحبة الصَّالحين والاستعانة بهم في أمور الدِّين والدُّنيا وهو أفضل من الاعتزال، لقوله: ﴿هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

الفائدة الثَّانية عشر: وفيه إجابة الله تعالى لدعاء إبراهيم حيث قال عقيب سؤاله الولد: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾.

الفائدة الثالثة عشر: وفيه استحباب بشارة من ولد له مولود وإعلامه بما يسرُّه.

الفائدة الرابعة عشر: وفيه أنَّ الأولاد نعمة من الله تعالى، وقد وصفهم سبحانه بالبشرى، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ [هود : 69].

الفائدة الخامسة عشر: وفيه منقبة لإسماعيلَ ، حيث وصفه الله تعالى بأنّه حليم، كما وصفَ بذلك أباه إبراهيم حيث قال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ۞﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ].

الفائدة السادسة عشر: وفيه من أعلام نبوَّة إبراهيم ، حيث بُشِّر بالولد ووصف بأنَّه غلام حليم، فتضمَّنت هذه البشارة بقاءه حتى يكبر ويصير حليمًا؛ لأنَّ الصَّغير لا يوصف بالحلم.

الفائدة السَّابعة عشر: وفيه أنَّه ينبغي على المرء أن يوطِّئ بين يدي المسائل الشَّديدة، ما يكون مؤذنا بها حتَّى يستأنس بها، لقوله تعالى: ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾، فوطَّأ سبحانه بين يدي الأمر بذبحه، فوصف الغلامَ أنّه حليم، إشارة إلى حصول البلاء، أي أنّه سيبتلى فيحلم.

الفائدة الثَّامنة عشر: وفيه جواز تسمية المخلوق ببعض أسماء الخالق، لقوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾، وقوله: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾، ومن أسمائه سبحانه «الحليم» و«العظيم»، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة : 263]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۞﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]؛ ومثله: أنّ الله عزَّ وجلَّ سمَّى نفسه العليم كما في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞﴾ [سُورَةُ الأَنْعَامِ]، ووصف بعض عباده عليمًا كما في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۞﴾ [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ]، ووصف نفسه بأنَّه رؤوف رحيم، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ]، ووصف نبيَّنا بذلك فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ]، ونحو ذلك كثير، ومعلوم أنَّ الاسم في حقِّ الخالق يقصد به إطلاق الوصف، أمَّا في حقِّ المخلوق فهو على سبيل التَّقييد وما يناسب وصفه، فالاشتراك في الأسماء لا يستلزم التَّشبيه، فليس المسمَّى كالمسمَّى، فليس الحليم كالحليم، وليس العظيم كالعظيم، وليس العليم كالعليم وهكذا في سائر الأسماء، والحاصل أنَّ من أسمائه تعالى ما يسمَّى به غيره، ومنها مالا يسمَّى به غيره كاسم «الله» و«الرَّحمن» و«الخالق» و«الرَّازق» ونحو ذلك.

الفائدة التَّاسعة عشر: وفيه فضل الحلم؛ لأنَّ الله تعالى أثنى على إسماعيل، حيث وصفه به، وجعل ذلك بشارة لإبراهيم عليهما السَّلام.

الفائدة العشرون: فيه بلاغة الإيجاز، لقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ

﴿ٱلسَّعۡىَ﴾ لأنَّ الكلام فيه حذف، تقديره: فوهبنا له الغلام، فنشأ حتَّى بلغ مبلغ الَّذي يسعى فيه مع أبيه في أمور دنياه.

الفائدة الواحدة العشرون: فيه استحباب مصاحبة الولد للوالد في السَّعي والعمل.

الفائدة الثَّانية والعشرون: وفيه من أدب إبراهيم مع ابنه إسماعيل، حيث خاطبه بالبنوَّة إضافة إلى نفسه ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ على سبيل التعطّف والشَّفقة والحنان والترحُّم؛ وفيه أدب إسماعيل مع أبيه إبراهيم، حيث ناداه بوصف الأبوَّة إضافة الأب إلى ياء المتكلِّم المعوَّض عنها التَّاء ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، على سبيل التَّوقير والتَّرقيق. ويتضمّن هذا الحثَّ على تأدُّب الأباء مع الأبناء بمناداتهم بالبنوَّة، وتأدّب الأبناء مع الآباء بمناداتهم بالأبوة.

الفائدة الثَّالثة والعشرون: وفيه جواز مناداة القريب على سبيل التَّلطُّف والتَّوقير، لقوله: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾، وقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾.

الفائدة الرَّابعة والعشرون: وفيه دليل على أنّ رؤيا الأنبياء وحي معصوم، قال عبيد بن عمير: «رؤيا الأنبياء وحي» ثم قرأ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾» رواه البخاري (138)، وقد كان أول ما بدئ به رسول ﷺ الرُّؤيا الصَّادقة في النَّوم فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مثل فلق الصُّبح.

الفائدة الخامسة والعشرون: وفيه دليل على صحَّة التَّكليف بالمشاقِّ، ولا شكَّ أنّ الأمر بذبح فِلْذَةِ الكبِدِ من أشدِّ أنواع المشاقِّ، لكنَّه في وسع الإنسان.

الفائدة السَّادسة والعشرون: وفيه استحباب مشورة الأبناء من ذوي الرَّأي في الأمور المهمَّة والنَّوازل المدلهمَّة.

الفائدة السَّابعة والعشرون: وفيه دليل على أنَّ لصيغة الأمر معاني أخرى غير الوجوب، منها: المشورة لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾، إشارة إلى مشاورته في هذا الأمر، وهو قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾.

الفائدة الثَّامنة والعشرون: وفيه دلالة على أنَّ صيغة الأمر للوجوب، لقوله: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ وهو أمر، وقول إبراهيم: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾، وإن كانت صيغته صيغة الخبر، فإنَّ معناها الأمر ضرورة؛ ولهذا أقبلا على الفعل، وانقادا لأمر الله تعالى فقال سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾.

الفائدة التَّاسعة والعشرون: وفيه دلالة على أنَّ الأمر للفور، ولهذا بادر إبراهيم وإسماعيل إلى امتثال أمر الله تعالى، فلم يقصِّرا في البدار، ولم يتراخيا في الامتثال.

الفائدة الثَّلاثون: وفيه أنَّ الأمر بالأمر بالشَّيء أمرٌ به، وذلك أنّ الله تعالى أمر إبراهيم بذبح ابنه، وأمره أن يأمرَ ابنَه بالطَّاعة والامتثال، فتعلَّق الخطابُ بأمرين: أمر لإبراهيم بالتَّنفيذ، وأمر لإسماعيل بالطَّاعة، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾، أي استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمْرَ الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه، وأما قول إبراهيم: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾، فإنَّما شاوره ليختبرَ ما عنده من الصَّبر والعزم على طاعة الله تعالى، وليأنس بالذَّبح وينقاد للأمر به، والله أعلم.

الفائدة الواحدة الثَّلاثون: وفيه عظم مقام إسماعيل عليه السَّلام، وذلك أنَّ إبراهيم عليه السَّلام لمَّا شاوره في الأمر ليختبرَ ما عنده من العزم على طاعة الله، والصَّبر على أمره، وتهيئته لتنفيذ ما أمر به، بادر إلى الإذعان والامتثال دون اضطراب ولا تردُّد، قائلا: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

الفائدة الثَّانية والثَّلاثون: وفيه تعليق الأمور بمشيئة الله، وتقديمها في كلِّ قول.

الفائدة الثَّالثة والثَّلاثون: وفيه إثبات المشيئة لله تعالى.

الفائدة الرَّابعة والثَّلاثون: وفيه الحثُّ على اللُّجوء إلى الله تعالى والاستعانة به في الأمور الصَّعبة وسؤاله الثَّباتَ وإفراغَ الصَّبرِ.

الفائدة الخامسة والثَّلاثون: وفيه من تواضع إسماعيل ﷺ، حيث قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ولم يقل: صابرًا، وقد صدق فيما وعد، ولهذا قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾.

يتبع...



بيان ضعف ونكارة قصة

سجود معاذ " للنبي أ

فضيلة الشيخ الدكتور ربيع بن هادي المدخلي

■ رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقا

عن عبد الله بن أبي أوفى قال: قدم معاذ اليمن ـ أو قال: الشَّام ـ، فرأى النَّصارى تسجد لبطارقتها وأساقفتها، فَرَوَّأ في نفسه أنَّ رسول الله أ أحقُّ أن يُعَظَّم.

فلمَّا قدم قال: يا رسول الله! رأيت النَّصارى تسجد لبطارقتها وأساقفتها فروَّأتُ في نفسي أنَّك أحقُّ أن تُعظَّم.

فقال: «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَد لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا».

حديث معاذ Ç في سجوده للنَّبيِّ أ ،لم يصحَّ إسناده ولا يصحُّ معناه.



أمَّا من جهة معناه؛ فإنَّه لم يثبت أنَّه ذهب إلى الشَّام في حياة النَّبيِّ أ ، وإنَّما الثَّابت ذهابه إلى الشَّامِّ في عهد عمر ابن الخطاب Ç ومات بالطَّاعون هناك، وفي الحديث: «حين رجوعه من اليمن» وهو لم يذهب إلى اليمن إلاَّ في آخر حياة النَّبيِّ أ ، ومات النَّبيُّ أ وهو باليمن، حيث لم يعد إلاَّ في خلافة أبي بكر Ç .

ثمَّ هو من كبار الصَّحابة وفقهائهم الكبار بعيد جدًّا أن يكون بهذه الدَّرجة من الجهل.

ومن جهة المتن ففيه اختلاف سيأتي بيانه.



وأمَّا من جهة الإسناد؛ ففيه نكارة، ومداره على القاسم ابن عوف الشَّيباني؛ ضعَّفه يحيى بن سعيد القطَّان وشعبة، كما أشار إلى ذلك القطَّان، وقال أبو حاتم: «مضطرب الحديث، ومحلُّه عندي الصِّدق»، وقال النَّسائي: «ضعيف»، وذكره ابن حبَّان في «الثِّقات»، وقال الذَّهبي في «الكاشف»: «مختلف في حاله»، وقال الحافظ: «صدوق يغرب».

انظر ترجمته في «تهذيب التَّهذيب» (326/8 - 327) و«الكامل» لابن عدي (37/6)، و«الميزان» للذَّهبي (376/3) و«الكاشف» للذَّهبي و«التَّقريب» للحافظ ابن حجر.

وقد روى هذا الحديث أحمد (381/4) من طريق إسماعيل ابن عليَّة عن أيُّوب عن القاسم بن عوف الشَّيباني عن عبد الله بن أبي أوفى قال: قدم معاذ اليمن أو قال الشَّام، فرأى النَّصارى تسجد لبطارقتها وأساقفتها، فَرَوَّأَ في نفسه أنَّ رسول الله ﷺ أحقُّ أن يُعَظَّم، فلمَّا قدم قال: يا رسول الله! رأيت النَّصارى تسجد لبطارقتها وأساقفتها فروَّأتُ في نفسي أنَّك أحقُّ أن تُعظَّم فقال: «**لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**».

ورواه أحمد عن وكيع عن الأعمش عن أبي ظبيان عن معاذ ابن جبل أنه لما رجع من اليمن قال: يا رسول الله! رأيت رجالاً باليمن يسجد بعضهم لبعض أفلا نسجد لك؟ قال: «**لَوْ كُنْتُ آمِرًا بَشَرًا يَسْجُدُ لِبَشَرٍ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**».

ورواه من طريق ابن نمير، سمعت أبا ظبيان يحدِّث عن رجل من الأنصار عن معاذ بمعناه. [«المسند» (277/4)].

فالحديث من طريق القاسم وأبي ظبيان ليس فيه أنَّ معاذًا سجد للنَّبيِّ ﷺ وإنَّما فيه عرض السُّجود للرَّسول ثمَّ ردُّ الرَّسول ذلك.

هذا مضمون هذا الحديث من هذين الوجهين، ومع ذلك فالحديث من طريق القاسم قد أعلَّه أبو حاتم بالاضطراب، انظر: «العلل» لابنه (253/2)، وكذلك أعلَّه الدَّار قطني في «علله» (37/6 ـ 38).

وأعلَّ حديث أبي ظبيان بالاختلاف في إسناده ثمَّ بالانقطاع؛ لأنَّ أبا ظبيان لم يسمع من معاذ، انظر: «العلل» (93/6 ـ 04).

> **حديث معاذ ؓ في سجوده للنَّبيِّ ﷺ، لم يصحَّ إسناده ولا يصحُّ معناه.**

وأمَّا التَّصريح بأنَّ معاذًا سجد للنَّبيِّ ﷺ، فرواه ابن ماجة حديث (1853)، وابن حبَّان في «صحيحه» حديث (4171)، والبيهقيُّ (292/7) من طرق عن حمَّاد بن زيد عن القاسم الشَّيباني عن عبد الله بن أبي أوفى به، وفيه سجد معاذ للنَّبيِّ ﷺ الحديث، فمدار هذه الطُّرق على القاسم الشَّيباني.

وذكر الدَّار قطني في «علله» (37/6 ـ 39) له طرقًا أخرى منها ما سبق.

ومنها عنه عن زيد بن أرقم عن معاذ.

ومنها عنه عن عبد الرَّحمن بن أبي ليلى عن أبيه عن معاذ.

ومنها عن عبد الرَّحمن بن أبي ليلى عن أبيه عن صُهيب عن معاذ.

> **فإنَّه لم يثبت أنَّه ذهب إلى الشَّام في حياة النَّبيِّ ﷺ، وإنَّما الثَّابت ذهابه إلى الشَّام في عهد عمر بن الخطاب ؓ ومات بالطَّاعون هناك.**

ثمَّ قال: «والاضطراب فيه من القاسم بن عوف».



فهذا حال هذا الحديث المنسوب إلى معاذ فيه عدَّة علل:

الأولى: ضعف القاسم بن عوف الشَّيباني.

الثَّانية: اضطرابه في الأسانيد.

الثَّالثة: الاختلاف في المتن.

الرَّابعة: الانقطاع في إسناد أبي ظبيان بينه وبين معاذ.

الخامسة: الاختلاف عليه، ونحن نستبعد وقوع مثل هذا من هذا الصَّحابيِّ الفقيه الجليل معاذ بن جبل ؓ.

> **ونحن نستبعد وقوع مثل هذا من هذا الصَّحابيِّ الفقيه الجليل معاذ بن جبل ؓ.**

وما كان كذلك لا يبنى عليه حكم شرعيٌّ فضلاً عن عقيدة.



أمَّا حديث: «**لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ**..» إلخ، فهو حديث ثابت ـ إن شاء الله ـ بمجموع طرقه عن أبي هريرة وأنس وعائشة. راجع «الإرواء» للعلامة الألباني (54/7 ـ 55).

الأسباب المعينة على تقوية الإيمان بالقدر

إنَّ أعظم ما على المسلم معرفته هو: توحيد الله ، وفهم عقيدته الَّتي يدين الله بها؛ ولا سبيل لمعرفة ذلك إلاَّ بكتاب الله ، وما ثبت في سنَّة رسول الله .

ومن ذلك معرفة الأسباب المعينة على تقوية أحد أركان الإيمان السِّتَّة وهو: الإيمان بالقدر خيره وشره؛ لما لمعرفة هذه الأسباب من دور في زيادة الإيمان والقرب من الرَّحمن . جلَّ جلاله .. فحريٌّ بالمسلم أن يتفقَّد نفسه، وينظرَ إلى منزلة هذا الرُّكن العظيم عنده؛ ليسعى في تقويته وتثبيته.

أمين السعدي
مرحلة الدكتوراه بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الإيمان بالقدر من أصول العقيدة الإسلاميَّة الَّتي يجب على المسلم الإيمان بها، ولما للإيمان بذلك من آثار واضحة على الفرد والمجتمع؛ كالدَّعوة إلى العمل الصَّالح، ومعرفة العبد قدر نفسه، وأنَّه ضعيف فقير إلى ربِّه ، فلا حول له ولا قوَّة إلاَّ بالله، وكذا القضاء على الأمراض المتفشِّية في المجتمعات لمن حقَّق هذا الرُّكن العظيم، وهو كذلك من أسباب استقامة المسلم في خاصَّته ومعاملته مع الآخرين بالصَّدع بالدَّعوة إلى الله تعالى، وهتك ستر الكفَّار والمنافقين، وبيان ضلال أهل الأهواء وغير ذلك، كلُّ ذلك والمسلم واثق بربِّه معتمد عليه في نصره وتوفيقه[1].

وباب القدر من الأبواب الكبيرة الَّتي ضلَّ فيها أقوام عن سواء السَّبيل؛ لأسباب كثيرة يعرفها من اطَّلع على كتب العقائد والفرق.

ومن تلكم الأخطاء في هذا الباب ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية : حيث قال: «وكذلك من غلط فترك الدُّعاء، أو ترك الاستعانة والتَّوكُّل، ظانًّا أنَّ ذلك من مقامات الخاصَّة، ناظرًا إلى القدر، فكلُّ هؤلاء جاهلون ضالُّون، ويشهد لهذا ما رواه مسلم في «صحيحه» عن النَّبيِّ أنَّه قال: «**المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وفي كلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا لَمْ يُصِبْنِي كَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[2].

فأَمَرَه بالحرص على ما ينفعه، والاستعانة بالله، ونهاه عن العجز الَّذي هو الاتِّكال على القدر، ثمَّ أمره إذا أصابه شيء ألاَّ ييأس على ما فاته، بل ينظر إلى القدر، ويسلِّم الأمر لله؛ فإنَّه هنا لا يقدر على غير ذلك، كما قال بعض العقلاء: الأمور أمران: أمر

(1) انظر «وسطية أهل السنة في القدر» للدُّكتور عواد بن عبد الله المعتق (42. 45).
(2) «صحيح مسلم» (2664).

فيـه حيلة، وأمـر لا حيلة فيه، فما فيه حيلـة لا يعجز عنه، وما لا حيلة فيه لا يجزع منه»[3].

فانظر أيُّهـا المسلم إلى أهمِّيَّة معرفة هـذا الرُّكن من أركان الإيمـان؛ وأنَّ الجهل بمسائله أدّى بأقـوام إلى الضَّـلال ـ والعياذ بـالله ـ، ترك قوم الأسباب الشَّرعيَّة الَّتي أمر الله بها، وزيَّن لهم الشَّيطـان أنَّ النَّظـر إلى القـدر في هذا الحال هـو مقام خاصَّة النَّاسـ، فلا سبيل للنَّجاة بعد توفيـق الله ـ جلَّ وعلا ـ إلاَّ بمعرفة الكتاب والسُّنَّة على أيدي العلماء الرَّاسخين، كما يقول ابن القيّم : في نونيَّته[4]:

والجهل داء قـاتل وشفـاؤه	أمران في التَّركيب متَّفقـانِ
نصٌّ من القرآن أو من سنَّةٍ	وطبيبُ ذاك العالم الرَّبَّاني

فتدبُّـر كتاب الله ـ جلَّ وعـلا ـ، وعقل معانيه، وكذا فقه حديث رسـول الله ﷺ من الأسباب المعينة على تقوية إيمان العبد وتعلُّقه بفاطـره ومالكـه ـ جلَّ جلاله ـ، كما قـال سبحانه وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [سورة ص].



فـإذا فعل العبـد الأسباب متوكِّلا على ربِّـه ـ جلَّ جلاله ـ؛ ثمَّ لم يقـع مـا أراده وسعى له فلا يتضجَّـر أو يتأسَّف؛ لأنَّ ذلك باب مـن أبواب الشَّيطان يفتحها على العبد ليحزنه، ويملأ قلبه ندما وحسـرة، وإنَّما عليه الرِّضـا بقضاء الله وقـدره، وليقُلْ ما أمره بـه نبيُّـه ﷺ : «**قَدَرُ اللهِ وَمَـا شَـاءَ فَعَـلَ**»[5]؛ لأنَّ الله ـ جلَّ وعلا ـ قد كتـب المقادير قبل أن يخلق السَّمـوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء كما ثبت ذلك في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما[6].

والآيات في هذا المعنــى كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾ [سورة الحديد]، وقـال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾ [سورة التغابن].

يقـول الشَّيـخ عبـد الرَّحمن بـن سعـدي : في تفسير آية الحديد السَّابق ذكرها: «هذا شامل لعموم المصائب الَّتي تصيب الخلق، من خير وشرٍّ، فكلُّها قد كُتب في اللَّوح المحفوظ، صغيرها وكبيرهـا، وهذا أمـر عظيم لا تحيط به العقـول، بل تذهل عنده أفئـدة أولي الألبـاب، ولكنَّه علـى الله يسير، وأخـبر الله عباده بذلـك لأجـل أن تتقرَّر هـذه القاعـدة عندهم، ويبنـوا عليها ما أصابهـم من الخير والشَّـرِّ، فلا يأسوا ويحزنـوا على ما فاتهم، ممَّا طمحت له أنفسهم وتشوَّفوا إليه، لعلمهم أنَّ ذلك مكتوب في اللَّـوح المحفوظ، لا بدَّ من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحـوا بما آتاهم الله فرحَ بطرٍ وأشـر، لعلمهم أنَّهم ما أدركوه بحولهم وقوَّتهم، وإنَّمـا أدركوه بفضل الله ومنِّه، فيشتغلوا بشكر مـن أولى النِّعم ودفع النِّقم، ولهـذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾، أي: متكـبِّر فظٍّ غليظ، معجـب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبهـا إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه كمـا قال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ [الزمر : 49]»[7].

• • •

ومنهـا: معرفة المسلم حال الحيـاة الدُّنيا، وأنَّها لا قرار لها، وأنَّ مآلها إلى الفناء؛ فلا يتعلَّق قلبه إلاَّ بربِّه ـ سبحانه ـ سائلا إيَّاه أن يرزقه الحياة الباقية؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ [سورة الأنعام].

• • •

(3) «مجموع الفتاوى» (8/284ـ285).
(4) «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» المشهورة بنونية ابن القيم (189).
(5) جزء من حديث في «صحيح مسلم» تقدم تخريجه.
(6) «صحيح مسلم» (2653).
(7) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (842) ط/مؤسسة الرسالة.

التوحيد الخالص

ومنهـا: اليقين بأنَّ الفرج مـع الكرب؛ وأنَّ العاقبة للمؤمنين، يقـول الله ـ جـلَّ وعـلا ـ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [سُورَةُ الشَّرْحِ] ففـي هذه الآية الكريمـة: «بشارة عظيمـة، أنَّه كلَّما وجـد عسر وصعوبة، فإنَّ اليسر يقارنـه ويصاحبه، حتَّى لو دخل العسـرُ جحرَ ضبٍّ لدخل عليـه اليسر، فأخرجه كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [سُورَةُ الطَّلَاقِ]... وتعريف «العسر» في الآيتـين، يدلُّ على أنَّه واحد، وتنكير «اليسر» يدلُّ على تكراره، فلن يغلب عسر يسريـن، وفي تعريفه بالألف والـلام، الدَّالة على الاستغـراق والعموم يدلُّ على أنَّ كلَّ عسر ـ وإن بلغ من الصُّعوبة ما بلغ ـ فإنَّه في آخره التَّيسير ملازم له»[8].

• • •

ومنهـا: اشتغال المسلم بما ينفعـه في دنياه وأخراه والحرص علـى ذلك مع استعانته بمولاه ـ جلَّ في علاه ـ، فقد أمر الله تعالى بـ«الحِرْص علـى المَنَافِعِ، وَأَمَرَ مَـعَ ذَلِكَ بِالتَّوَكُّلِ وَهُـوَ الاسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ، فَمَنْ اكْتَفَـى بِأَحَدِهِمَا فَقَدْ عَصَى أَحَدَ الأَمْرَيْنِ، وَنَهَى عَن العَجْزِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْكَيْسِ»[9].

• • •

ومنهـا: كثرة ذكر الله تعالى، والتَّضرُّع والافتقار في الدُّعاء، فيسـأل المسلـم ربَّـه أن يجنِّبه السـوء، وأن يحفظه مـن الشُّرور والآثـام، فإن أصابه شيء فعليـه أن يرضى بما قدَّره ربُّه وقضاه، فـإنَّ هـذا هو هدي النَّبـيِّ ﷺ فقـد «**كان ﷺ يتعوَّذ مـن سوء القضـاء، ومـن درك الشَّقـاء، ومـن شماتة الأعداء، ومـن جَهْدِ البلاء**»[10].

• • •

ومنهـا: تقويـة خُلـق الشَّجاعة لدى المؤمـن؛ فيظهر ذلك في تمسُّكـه بدينه، فلا يضعف فيميل مـع الأهواء، بل عليه أن يسعى دائمـا لتقويـة يقينـه بربِّه تعـالى، يقول ابـن القيـم ؒ: «فإنَّ الشُّجـاع منشرح الصَّدر، واسع البطـان، متسع القلب، والجبان أضيـق النَّاس صـدرًا، وأحصرهم قلبًا، لا فرحـة له ولا سرور، ولا لـذَّة له ولا نعيم إلاَّ من جنس ما للحيوان البهيمي، وأمَّا سرور الـرُّوح ولذَّتها، ونعيمها، وابتهاجهـا، فمحرَّم على كلِّ جبانٍ، كما هو محرَّم على كلِّ بخيلٍ وعلى كُلِّ مُعرِض عن الله سبحانه، غافلٍ عن ذِكره، جاهلٍ به وبأسمائه تعالى وصفاته، ودِينه، متعلِّق القلبِ بغـيره، وإنَّ هذا النَّعيـم والسُّرور، يصير في القـبر رياضًـا وجنَّـة، وذلـك الضِّيـقُ والحصر، ينقلـبُ في القبر عذابًا وسجنًا، فحـال العبـد في القـبر كحـال القلـب في الصدر، نعيمًا وعذابًـا وسجنًا وانطلاقًا، ولا عبرةَ بانشـراح صدر هذا لعارض، ولا بضيـق صدرِ هـذا لعارض، فإنَّ العوارِضَ تـزولُ بزوال أسبابها، وإنَّمـا المعـوَّلُ علـى الصِّفة الَّتي قامـت بالقلب تُوجـب انشراحه وحبسه، فهي الميزان والله المستعان»[11].

كلَّما وجـد عسـر وصـعـوبـة، فـإنَّ اليسر يقارنه ويصاحبه، حتَّى لو دخل العسرُ جحرَ ضبٍّ لدخل عليه اليسر، فأخرجه كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾

فمـن وفِّـق للأخـلاق الفاضلـة؛ كالشَّجاعـة، والسَّماحـة، والصَّـبر ونحوها فقد أوتي خيرا كثيرا؛ فـإنَّ العباد «وخصوصًا في أوقـات المحن والفتن الشَّديـدة؛ فإنَّهم يحتاجـون إلى صلاح نفوسهم، ودفع الذُّنوب عن نفوسهم عند المقتضي للفتنة عندهم، ويحتاجون أيضًا إلى أمر غيرهم ونهيه بحسب قدرتهم، وكلٌّ من هذين الأمرين فيه من الصُّعوبة ما فيه، وإن كان يسيرًا على من يسَّره الله عليه»[12].

• • •

ومنهـا: التَّوكُّل على الله: يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [3 :الطَّلَاقِ].

ومعنى حسبه: أي كافيه، وحسبك بكفاية الله لعبده؛ يقول الشَّيـخ عبد الرَّحمن بن سعدي ؒ: «متى اعتمد القلب على اللـه، وتوكَّل عليه، ولم يستسلم للأوهام، ولا مَلَكَتْه الخيالات

(8) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (929).
(9) «الفتاوى الكبرى» لابن تيمية (108/1).
(10) «صحيح البخاري» (6616) و«صحيح مسلم» (2707).

(11) «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن القيم (26/2).
(12) «مجموع الفتاوى» (165/28).

السَّيِّئَة، ووثق بالله وطمع في فضله، اندفعت عنه بذلك الهموم والغموم، وزالت عنه كثير من الأسقام البدنيَّة والقلبيَّة، وحصل للقلب من القُوَّة والانشراح والسُّرور ما لا يمكن التَّعبير عنه...

فالمتوكِّل على الله قويُّ القلب لا تؤثِّر فيه الأوهام، ولا تزعجه الحوادث؛ لعلمه أنَّ ذلك من ضعف النَّفس، ومن الخور والخوف الذي لا حقيقة له، ويعلم مع ذلك أنَّ الله قد تكفَّل لمن توكَّل عليه بالكفاية التَّامَّة؛ فيثق بالله ويطمئنُّ لوعده، فيزول همُّه وقلقه، ويتبدَّل عسره يسرًا، وترحه فرحًا، وخوفه أمنًا»[13].



ومنها: أن يتذكَّر المسلم قصص المرسلين وأتباعهم؛ فإذا أصابته مصيبة ـ لا قدَّر الله ـ فقد أصيب بمثلها من هو خير منه: وهم الأنبياء والمرسلون والصَّالحون، فإنَّ مطالعة سيرهم وأحوالهم العظيمة من أسباب تقوية الإيمان، ومصداق ذلك ما ذكره الله في كتابه الكريم مخاطبًا نبيَّه : ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [سُورَةُ هُودٍ].



هذا ما أردتُّ كتابته في هذا المقام بما يسَّر الله وأعان، ومن تأمَّل ظهر له الكثير من الأسباب الجليلة في تقوية الإيمان بقدر الله ـ جل جلاله ـ، وإنَّما ذكرت ما تيسَّر مراعاة للاختصار، وإلاَّ فإنَّ الإيمان بالقدر شأنه عظيم، وتحقيقه سبب لسعادة العبد في الدُّنيا والآخرة، يقول إبراهيم الحربي : «من لم يؤمن بالقدر لم يتهنَّ بعيشه»[14]، فإن أصبتُ فذلك من فضل الله ومنَّته، وإن أخطأت فمنِّي ومن الشَّيطان، وأستغفر الله من ذلك، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه .

يقول إبراهيم الحربي : :
«من لم يؤمن بالقدر لم يتهنَّ بعيشه»

(13) «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة» لابن سعدي (ص26).
(14) «قطر الولي على حديث الوليِّ» للشَّوكاني (369).

نصوص عقدية

للشَّيخ عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ [ت 1359هـ]

في الإيمان بالله، ومنهجه في تقرير أسماء الله وصفاته[1]

شرح وتعليق:
أ.د. محمد علي فركوس

إنَّ الإيمـان بـالله تعالى ومعرفةَ أسمائه الحسنى وصفاته العُليا هو الأساس الَّذي تبْنَـى عليه الحياة الرُّوحيَّة، وتحيى به الحياة الطَّيِّبة، ويبعث بالمرء على طلب معالي الأمور وأشرافها، وينأى به عن محقِّرات الأعمال وسفاسفها.

وقـد استقى الشَّيخ عبد الحميد بن باديس منابـعَ استدلاله من المصدر القرآني، واتَّخذ وسيلته للكشف عن حقيقة المعرفة بالله تعالى، والَّتي يرجع مسلكها إلى جهتين:

الأولى: مخاطبـة العقـل وإيقاظه، واستعمال وظيفتـه في التَّأمُّل والنَّظر والتَّفكير؛ ليدرك به سنن الكـون وحقائق الأشياء وعلل الوجود، ليتعرَّف العبد من خلال عقله المتأمِّل وتفكيره المعمَّق مظاهر وحدانيَّته وعظمته، وأدلَّة ربوبيَّته وقدسيَّته، واستحقاقه الإخلاص المطلق في دينه وعبوديَّته.

والثَّانيـة: وسيلـة الأسمـاء والصِّفات الَّتي تعرَّف الله بهـا إلى خلقه، والَّتي تحرِّك فيهم الوجدان وتفتـح أمامهم مجالاً واسعًا، للتَّعرُّف على صفات الجمال والجلال، وعلى شمول علمه ونفوذ قدرته وتفرُّده بالخلق والإبداع، واستحقاقه الألوهيَّة المطلقة والعبوديَّة الخالصة.

ويتجلَّى من خلال نَفَس الشَّيخ ابن باديس وعنايته بهذه الجوانب العقديَّة لتعريف مجتمعه بعقيدتهم الإسلاميَّة الصَّحيحة الثَّابتـة بالكتـاب والسُّنَّة، والَّتي عليها أهل بلاده سَلَفًا قبل عدول بعض الخلف عن نهـج الفطرة إلى مدارس عقديَّة مختلفة، انتشرت علـى إثـر الخلافات والصِّراعات السِّياسيَّة والحروب عبر تاريخ الجزائر، مزَّقت الشَّمل والتَّلاحم، ووسَّعت الهوَّة بين الأُمَّة الواحدة، كمـا ظهـر نَفَس الشَّيـخ ابن باديس من جهة أخرى في إعداد العدَّة الإيمانيَّة لمواجهة التَّيَّـارات الإلحاديَّة الَّتي كانت في عصره أو ممَّن تأثَّروا بشبههم الضَّالَّة المتواردة على وحدانيَّة الله ووجوه كماله.

وقـد رأيت من المفيد أن أتناول عقيـدة الإيمان بالله ومنهج الشَّيخ عبد الحميد بن باديس في تقرير الأسماء والصِّفات من خـلال كتابه «**العقائـد الإسلاميَّة من الآيـات القرآنيَّة والأحاديث النَّبويَّـة**»، فأتعرَّض لهذا الجانب العقـدي بالشَّرح والتَّعليق على بعض المسائل الَّتي تدعو الحاجة فيها إلى البيان؛ إتمامًا للفائدة العلميَّة وتعميمًا للخير.



(1) تنبيه: نصُّ المصنِّف: مقدَّم بخطٍّ غليظ متميِّز عن الشَّرح والتَّعليق، اللَّذين رمزت لهما بحرفي: [ش. ت] بعد كلِّ عبارة تحتاج إلى بيان وإيضاح أو تعليق.

يقول الشَّيخ عبد الحميد بن باديس : في الإيمان بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ما نصُّه:

«الخَامِسُ وَالثَّلاثُونَ: هُوَ المَوْجُودُ الحَقُّ لِذَاتِه، الَّذِي لا يَقْبَلُ وُجُودُهُ العَدَمَ».

[**ش.ت**]: والمـراد بــ «الموجـود الحقّ لذاتـه» هو: واجـب الوجـود بنفسه، أي: الموجـود الَّذي لم يسبق وجـودَه عدمٌ، لا من سببٍ خارجٍ، ولا لعلَّةٍ خارجة.

وعبارة «واجب الوجود لذاته» أحدثها الفلاسفة والمتكلِّمـون، وهي لا تُعرف في كلام الشَّـارع، ولا في كلام السَّلف، لكن المعنــى ثابـتٌ في كلام الشَّـارع، ومجمعٌ عليـه، وهـو قولـه تعـالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحَدِيد: 3]، وقولـه ﷺ: «**أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ**»[2]، ولمزيد بيان هذه العبارة نفصِّل وجهها على النَّحو التَّالي: أنَّ الموجود:

ـ إمَّا أن يجـب وجوده لذاته، وهو الله ـ سبحانـه وتعـالى ـ فهـو الموجـود الأوَّل الأزليُّ الخالقُ الغنيُّ عمَّا سواه.

ـ وإمَّـا أن يمتنـع وجـوده لذاتـه، وهو المحـال الممتنـع الوجـود، كالجمـع بـين الضِّدَّيـن كالسَّـواد والبياض في محـلٍّ واحـدٍ، أو بـين النَّقيضين ككـون الشَّيء معدومًا موجودًا في آنٍ واحد.

ـ وإمَّـا أن يكـون لذاته جائـز الوجود والعدم، ويُسمَّى: ممكنًا، كالعالم وسائر أجزائه، وغير الواجب بنفسه وهو الممكن الجائـز لا يكـون إلاَّ بالواجـب بنفســه، فالمخلـوق لا يكون إلاَّ بخالـق، والفقير لا يكـون إلاَّ بغنـي عنه، فالشَّــيء ـ إذن ـ إن افتقـر في وجـوده إلى سبـبٍ مؤثِّـر فيه خارج عن ذاتـه فهو الممكن الجائز، وإن لم يفتقر فهو الواجب وهو موجود لذاته، أي: دائم البقاء ما دامت ذاته موجودة، بخلاف مـا علَّة وجـوده أمر خـارج عن ذاته؛ فإنَّه يزول بزوال علَّته.

وهـذا التَّقسيم السَّابـق إنَّما يختصُّ بالواجـب والممكـن؛ لأنَّ الممتنـع لا وجود له.

وإذا اتَّفق الواجب والممكن في مسمَّى الوجود والعلم والقـدرة، فهذا المشترك مُطلـق كلـيٌّ يوجـد في الأذهـان لا في الأعيان، والموجود في الأعيان مختصٌّ لا اشتراك فيه، وفي تقرير هذا المعنى يقول ابـن تيميَّة : مـا نصُّـه: «وأمَّا المعنى الكليُّ العـامُّ المشترك فيه، فـذاك ـ كما ذكرنا ـ لا يوجـد كليًّا إلاَّ في الذِّهن، وإذا كان المتَّصفـان به بينهما نوعٌ من موافقة ومشاركة ومشابهة من هذا الوجه فذاك لا محذور فيـه، فإنَّه ما يلزم ذلك القدر المشترك من وجوب وجـواز وامتناع فإنَّ الله مُتَّصـف به، فالموجـود من حيث هو موجـود أو العليـم أو الحـيُّ، مهما قيل: إنَّـه يلزمه من وجـوب وامتنـاع وجواز؛ فالله موصوف به، بخلاف وجود المخلوق وحياتـه وعلمـه، فـإنَّ الله لا يوصف بما يختـصُّ بـه المخلـوق من وجـوب وجواز واستحالـة، كمـا أنَّ المخلـوق لا يوصـف بما يختصُّ به الرَّبُّ مـن وجوب وجواز واستحالة»[3].

وقال ابن أبي العزِّ الحنفي : «فلو تماثـلا للـزم أن يكـون كلٌّ منهما واجب القـدم ليـس بواجـب القـدم، موجـودًا بنفســه غير موجود بنفســه، خالقًا ليس بخالق، غنيًّـا غير غني، فيلـزم اجتماع الضِّدَّين على تقديـر تماثلهما، فعلم أنَّ تماثلهمـا مُنتفٍ بصريـح العقل، كما هو منتفٍ بنصوص الشَّرع»[4].

قلت: ومن هـذه النُّصوص النَّافية للتَّمثيـل والتَّشبيـه قوله تعـالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورَى]، وقولـه تعـالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص]، وقولـه تعـالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البَقَرَة]، وقوله تعـالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مَرْيَم]، وسيأتـي ذلـك مـن كلام المصنِّف.

«فَهُوَ القَدِيمُ الَّذِي لا بَدَايَةَ لِوُجُودِه».

[**ش.ت**]: يلاحظ أنَّ المصنِّف لم يورد لفـظ «القديم» على أنَّه اسـم مِنْ أسماء الله تعالى، وإنَّمـا ذكره من باب الخبر، بمعنى أنَّه متقدِّم على كلِّ ما سواه، وباب الإخبار أوسع من باب الصِّفات التَّوقيفيَّة ـ كما أفاد ذلـك ابن القيِّم : ـ حيث قـال: «إنَّ ما يدخل في بـاب الإخبار عنه تعـالى أوسع ممَّا يدخـل في باب أسمائه

(2) أخرجه مسلم (2713) من حديث أبي هريرة .

(3) «منهاج السُّنَّة النبوية» (8/31).

(4) «شرح العقيدة الطَّحاوية» (103).

وصفاته كالشَّيء والموجود والقائم بنفسه؛ فإنَّه يُخْبَرُ به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العلى»[5].

قلت: ويجوز الإخبار بهذه الألفاظ عنه ولا تدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العلى، ولكن يشترط في اللَّفظ أن لا يكون معناه سيِّئًا، ومن أمثلة ذلك لفظ: «الذَّات»، ولفظ «بائن» فهذه الألفاظ تحمل معانٍ صحيحة دلَّت عليها النُّصوص، وهذا النَّوع من الألفاظ يجيز أهل السُّنَّة استعمالها كقولهم: «إنَّ الله استوى على العرش بذاته»، أو قولهم: «إنَّ الله عال على خلقه بائن منهم»، فلفظة «بذاته» مراد بها أنَّ الله مستوٍ على العرش حقيقةً، وأنَّ الاستواء صفة له، ولفظة «بائن» يراد بها إثبات العلوِّ حقيقة، والرَّدّ على زَعْم من قال: إنَّ الله في كلِّ مكان بذاته.

وأمَّا من جهة التَّسمية فـ«القديم» لم يرد به نصٌّ من الشَّرع على صحَّته، لذلك لا ينبغي عدُّه في أسماء الله الحسنى لعدم ثبوته من جهة النَّقل، ويغني عنه اسمه سبحانه: «الأوَّل» كما تقدَّم من الآية والحديث.

قال ابن أبي العزِّ : «وقد أدخل المتكلِّمون في أسماء الله تعالى «القديم»، وليس هو من الأسماء الحسنى، فإنَّ «القديم» في لغة العرب الَّتي نزل بها القرآن هو: المتقدِّم على غيره، فيُقال: هذا قديمٌ للعتيق، وهذا حديث للجديد، ولم يستعملوا هذا الاسم إلاَّ في المتقدِّم على غيره، لا فيما لم يسبقه عدم، كما

(5) «بدائع الفوائد» (161).

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩﴾ [يس]، و«العرجون القديم»: الَّذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثَّاني، فإذا وُجد الجديد، قيل للأوَّل: قديم...، وأمَّا إدخال «القديم» في أسماء الله تعالى فهو مشهور عند أكثر أهل الكلام، وقد أنكر ذلك كثير من السَّلف والخلف، منهم: ابن حزم.

ولا ريب أنَّه إذا كان مستعملاً في نفس التَّقدُّم، فإنَّ ما تقدَّم على الحوادث كُلِّها فهو أحقُّ بالتَّقدُّم من غيره، لكن أسماء الله تعالى هي الأسماء الحسنى الَّتي تدلُّ على خصوص ما يُمدح به، والتَّقدُّم ـ في اللُّغة ـ مطلق لا يختصُّ بالتَّقدُّم على الحوادث كلِّها، فلا يكون من الأسماء الحسنى، وجاء الشَّرع باسمه «الأوَّل» وهو أحسن من «القديم»؛ لأنَّه يُشعر بأنَّ ما بعده آيل إليه، وتابع له، بخلاف «القديم» والله تعالى له الأسماء الحسنى لا الحسنة»[6].

قلت: والمصنِّف : قد احتاط في عبارته فقيَّدَ [القديم] بأنَّه [الَّذي لا بداية لوجوده]، فلو أطلقها من غير تقييد لم يكن معناها الحقُّ صحيحًا إلاَّ بالزِّيادة المذكورة.

«وَهُوَ البَاقِي الَّذِي لاَ نِهَايَةَ لِوُجُودِه».

[ش.ت]: ففيما ذكره المصنِّف في هذا الجانب من عقيدة الإيمان بالله تقرير لِاسْمَي الله تعالى:

(6) «شرح العقيدة الطحاوية» (114ـ115).

ـ «الأوَّل» أي: الَّذي ليس قبله شيء، الدَّال على أنَّه المبتدئُ بالإحسان من غير وسيلة من العبد، إذ كلُّ ما سواه حادثٌ يجب على العبد أن يَعِيَ فضل الله عليه، ويلحظ نعمه الَّتي لا تُحصى سواء دينيَّة كانت أو دنيويَّة؛ لأنَّ من الله الإعداد ومنه الإمداد، وفضله سابق على الوسائل؛ ولأنَّ الله تعالى خالق السَّبب والمسبَّب.

ـ «الآخر» أي: الَّذي ليس بعده شيء، الدَّال على أنَّه هو الغاية الَّتي تقصده جميع المخلوقات بالذُّلِّ والحاجة والافتقار، وتفزع إليه بتألهها ورغبتها ورهبتها، وتصمد إليه في جميع مطالبها، فيجب على العبد أن لا يثق بالأسباب التي تنعدم لا محالة، ويبقى الدَّائم الباقي بعدها لا نهاية لوجوده.

والاسمان يَدُلَّان على تفرُّد الله تعالى بالكمال المطلق والإحاطة المطلقة من حيث الزَّمان فهو «الأوَّل والآخر»، كما يدلُّ اسما «الظَّاهر والباطن» على تفرُّده به من حيث المكان.

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم].

[ش.ت]: والاستفهام في الآية للتَّقريع والتَّوبيخ والإنكار، والظَّاهر أنَّ المصنِّف : استدلَّ بالآية على معنى الوجود الحقِّ لذاته ـ وهو أحد معاني الآية ـ. ويكون معناها: أفي وجود الله شكٌّ؟! ذلك لأنَّ الفطرة السَّليمة شاهدة

بوجوده ومجبولةٌ على الإقرار به، غير أنَّه قد يقترن بالفطرة بعض حالات الاضطراب والشَّكِّ، الأمر الَّذي يحتاج إلى نظر في الدَّليل الموصل إلى وجوده، ومن مُهمَّة الرُّسل إرشادهم إلى طريق معرفته بأنَّه فاطر السَّموات والأرض الَّذي خلقهما وأنشأهما وابتدعهما من العدم، فهي شواهد دالَّةٌ على عدم الشَّكِّ في وجوده سبحانه ووحدانيَّته.

قال ابن القيِّم: «فالعارفون أرباب البصائر يستدلُّون بالله على أفعاله وصنعه، إذا استدلَّ النَّاس بصنعه وأفعاله عليه، ولا ريب أنَّهما طريقان صحيحان، كلٌّ منهما حقٌّ، والقرآن مُشتملٌ عليهما.

فأمَّا الاستدلال بالصَّنعة فكثير، وأمَّا الاستدلال بالصَّانع فله شأن، وهو الَّذي أشارت إليه الرُّسل بقولهم لأُممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ]، أي: أيشكُّ في الله حتَّى يطلب إقامة الدَّليل على وجوده؟ وأيُّ دليل أصحُّ وأظهر من هذا المدلول؟ فكيف يستدلُّ على الأظهر بالأخفى؟ ثمَّ نبَّهوا على الدَّليل بقولهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ].

وسمعت شيخ الإسلام تقيَّ الدِّين ابن تيمية - قدَّس الله روحه - يقول: «كيف يُطلب الدَّليل على مَن هو دليلٌ على كلِّ شيءٍ؟ وكان كثيرًا ما يتمثَّل بهذا البيت:

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الأَذْهَانِ شَيْءٌ

إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلِ

ومعلومٌ أنَّ وجود الرَّبِّ تعالى أظهرُ للعقول والفِطر من وجود النَّهار، ومن لم يرَ ذلك في عقله وفطرته فليتَّهِمْهُمَا»[7].

هذا؛ والآية تحتمل معنى الإلهيَّة وتوحيد العبادة، ويكون معناها: أفي إلهيَّته وتفرُّده بوجوب العبادة له شكٌّ؟! وهو المخترع لجميع الموجودات والمبدع لها على غير مثالٍ سابق، فإنَّ شواهد الحدوث والخلق والتَّسخير ظاهرٌ عليهما، والإلهيَّة مشارٌ إليها بلفظ الجلالة في الآية، وعليه فلا يستحقُّ العبادةَ إلاَّ هو وحده لا شريكَ له، ذلك لأنَّ غالب الأمم كانت مُقرَّة بالصَّانع، ولكن كانت تعبد معه غيرَه من الأولياء والوسائط[8].

وللآية معنى ثالث ذكره القرطبي: بقوله: «ويحتمل وجهًا ثالثًا: أفي قدرة الله شكٌّ؟ لأنَّهم متَّفقون عليها ومختلفون فيما عداها، يدلُّ عليه قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقها ومخترعها ومنشئها وموجدها بعد العدم، لينبِّه على قدرته فلا تجوز العبادة إلاَّ له»[9].

قلت: والمعنى الأوَّل الَّذي ذكره المصنِّف أقرب في المجادلة وأوضح عند المحاجة؛ لأنَّ كثيرًا ما يرد في القرآن الاستدلال بتوحيد الرُّبوبيَّة الَّتي جبلت عليه فطر العقلاء، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ٨٧﴾ [سُورَةُ الزُّخْرُفِ]، الدَّالّ على توحيد الإلهيَّة بإفراد الله بجميع أنواع العبادات، والإخلاص له فيها على وجه ما شرعه الله على ألسنة رسله، ومُعظم الآيات القرآنيَّة في هذا النَّوع من التَّوحيد، وهو محلُّ دعوة الرُّسل، وموضعُ معركتهم مع أُممهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ٥﴾ [سُورَةُ صٓ].

وَلقوله تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٤﴾ [سُورَةُ الرَّعْدِ]، **وَلقوله تعالَى:** ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [سُورَةُ طه]، **وَلقوله تعالَى:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سُورَةُ الفَاتِحَةِ].

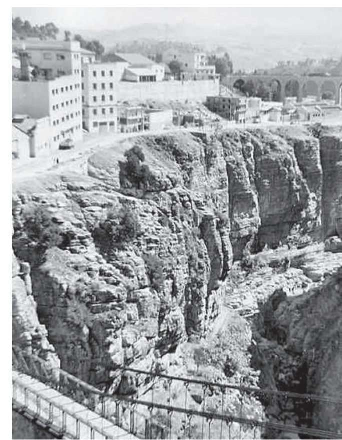
[ش.ت]: قال ابن القيِّم: «تضمَّنت الفاتحة إثبات الخالق تعالى والرَّدَّ على من جحده بإثبات ربوبيَّته تعالى للعالمين، وتأمَّل حال العالم كُلِّه علويِّه وسفليِّه بجميع أجزائه تجده شاهدًا بإثبات صانعه وفاطره ومليكه، فإنكار صانعه وجحده في العقول والفطر

(7) «مدارج السَّالكين» (1/59).
(8) انظر: «تفسير ابن كثير» (2/524)، و«تفسير الشوكاني» (3/97).
(9) في «تفسيره» (9/346).

بمَنْزِلة إنكار العلم وجحده، لا فرق بينهما، بل دلالة الخالق على المخلوق، والفعَّال على الفعل، والصَّانع على أحوال المصنوع عند العقول الزَّكيَّة المشرقة العلويَّة، والفطر الصَّحيحة أظهر من العكس»[10].

وَقَوْله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الطور]، **وقوله تعالى:** ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [سورة الحديد].

[ش.ت]: ومعنى الآية: أَخُلق هؤلاء المشركون من غير خالق ولا موجد، أم هم الَّذين خلقوا أنفسهم؟ وإذا كان كلاَ الأمرين باطلاً ومستحيلاً فتعيَّن أنَّ الله تعالى هو الَّذي خلقهم، وهو المستحقُّ للعبادة وحده المتفرِّد بها من غير شريك له ولا نظير، ولا تُبْتَغَى العبادة ولا تصلح إلَّا له سبحانه.



(10) «مدارج السالكين» (1/59).

السَّادسُ والثَّلاثُونَ: وَهُوَ المَوْجُودُ الَّذِي سَبَقَ وُجُودُهُ كُلَّ وُجُود، فَكَانَ تَعَالَى وَحْدَهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ، ثُمَّ خَلَقَ مَا شَاءَ مِنْ مَخْلُوقَاتِه، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ [الحديد: 3]، ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [السجدة: 4]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [سورة الفرقان]، ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الفرقان: 59]، ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [سورة فصلت].

[ش.ت]: تقدَّم من كلام المصنِّف: «هو الموجود الحقُّ لذاته.. القديم الَّذي لا بداية لوجوده»، فأراد المصنِّف أن يُبيِّن أنَّ كُلَّ ما سوى الله سبحانه فهو محدَث مخلوقٌ، كائن بعد أن لم يكن، ووجوده لا يكون إلاَّ بموجده الخالق الَّذي لم يسبقه العدم، وسبق وجودُه كُلَّ وجود، فكان الله تعالى بجميع صفاته العلى وحده ولا شيء قبلَه ولا معه، ثُمَّ أحدث المخلوقات بقدرته وعلمه وأوجدها من العدم، ذلك لأنَّ صفاته - سبحانه - ليست شيئًا غير الموصوف في الخارج، وأمَّا أفعاله - سبحانه - فهي قديمةُ النَّوع حادثة الآحاد، فهو الموصوف بكونه خالقًا قبل أن يصدر منه الخلق بلا بداية، والموصوف بكونه متكلِّمًا قبل أن يصدر منه الكلام، وإنَّما خلقُه وكلامه مُتجدِّدان، فأوَّليَّة صفاته سبحانه بأوليَّة ذاته قديمةُ النَّوع، وملازمة له في الماضي والمستقبل، فهو بصفاته أبدي لا نهاية له، ويدلُّ عليه قوله ﷺ لأهل اليمن: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ**»[11]، وقوله: «**أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ**»[12].

هذا؛ ومن سياق كلام المصنِّف فإنَّ إثبات ربوبيَّة الله تعالى المحضة لجميع المخلوقات تقتضي مباينته لعالم المخلوقات بالذَّات، والخلق مباينون له، كما يقتضي علوّه على خلقه وتميُّزه وانفصاله عنهم وعدم اختلاطه بهم أو حلوله فيهم وهو قول سلف الأمَّة وأئمَّتها، قال ابن القيِّم : «فمن لم يثبت ربًّا مباينًا للعالم فما أثبت ربًّا»[13].

ويترتَّب على هذا المعتقد إبطال قول طوائف المعطِّلة من الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم من متأخِّري الأشاعرة والماتريدية الَّذين ينكرون المباينة بالجهة، فبعضهم ينفي المباينة ويثبت المحايثة، فيقولون: إنَّه بذاته في كلِّ مكان، وبعضهم ينفي المباينة والمحايثة،

(11) أخرجه البخاري (7418) من حديث عمران ابن حصين .
(12) تقدَّم تخريجه قريبًا.
(13) «مدارج السَّالكين» (1/61).

ويقولـون: لا مباين ولا محايث، ولا داخل العالم ولا خارجه، ولا فوقه ولا تحته، ولا عـن يمينه ولا عـن يسـاره، ولا خلفه ولا أمامـه، ولا فيه ولا بائن عنه، ولا شكَّ أنَّ العقول لا تتصوَّره حتَّى تُصدِّقَ به.

كما يترتَّب على هذا المعتقـد إبطال زعم الاتحاديَّة من أهل الإلحاد والتَّعطيل، القائلين بوحدة الوجود، الَّذين يعتقدون أنَّه ليس في الوجود: قديم خالق، وحادث مخلوق، وإنَّما وجود العالم هو عين وجود الله، وهو حقيقة وجـود هذا العالم، فلا تبايـن بين الخالق والمخلـوق، فالرَّبُّ هو نفس العبـد وحقيقته، والمالـك هو عين المملـوك، والرَّاحـم هـو عـين المرحوم، والعابد هـو نفس المعبود، فالكلُّ من عينٍ واحـدة، بل هو العين الواحـدة، قال ابن عربي الحاتمي:

العَبْدُ رَبٌّ، وَالرَّبُّ عَبْدٌ
يَا لَيْتَ شِعْري، مَن المُكَلَّفُ؟
إِنْ قُلْتَ: عَبْدٌ، فَذَاكَ مَيِّتٌ
أَوْ قُلْتَ: رَبٌّ، أَنَّى يُكَلَّفُ؟[14]

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [سُورَةُ الإِسْرَاءِ].

> «السَّابِعُ وَالثَّلاثُونَ: فَهُوَ الغَنِيُّ بِذَاتِهِ عَنْ جَمِيعِ المَوْجُودَاتِ، وَهِيَ المُفْتَقِرَةُ كُلُّهَا . ابْتِدَاءً وَدَوْمًا . إِلَيْهِ».

[ش.ت]: فالله سبحانه وحدَه الَّذي له الغنى التَّام المطلق من كُلِّ وجهٍ لا يعتريه نَقْصٌ ولا يلحقـه عيب لكمالـه سبحانه وكمـال صفاتـه، وغناه من لـوازم ذاته، إذ أنَّ غناه ثابتٌ لـه لذاته لا لأمرٍ أوجب غناه.

والخلق فقير محتـاجٌ إلى ربِّه بالذَّات لا لعلَّة أوجبت تلك الحاجة، وكُلُّ ما يذكر من عِلَّـة الحاجة سواء كانـت «الإمكان» كما هو عند الفلاسفة أو «الحدوث» كما هو عند المتكلِّمين فإنَّ الإمكان والحدوث والاحتيـاج إنَّما هـي أدلَّة علـى الحاجة والافتقـار لا علـل لهـا ولا أسبـاب، قال ابن القيِّـم : «وفقر العـالم إلى الله سبحانه أمرٌ ذاتيٌّ لا يعلَّل فهو فقير بذاته إلى ربِّه الغنيِّ بذاته، ثمَّ يستدلُّ بإمكانه وحدوثه وغير ذلك مـن الأدلَّة على هذا الفقر»[15].

ومن كمـال غناه وملكه وعـدم نفاده أنَّ الله تعـالى لم يتَّخـذ صاحبةً ولا ولدًا ولا شريـكًا في الملـك ولا وليًّا مـن الذُّلِّ، وخزائنـه سبحانـه لا تنفـد ولا تنقص بالعطاء، ولـو أعطى الأوَّلـين والآخرين مـن الجنِّ والإنسِ ما سألـوه مجتمعين كلّهـم في مـكان واحد، وتمنَّـى كلُّ واحدٍ منهـم أقصى ما يتمنَّـاه، وسأل غاية ما يريده، واستجـاب الله للجميع، فأعطى كلاًّ منهم ما أراد وسأل وما بلغت أمانيه ما نقص ذلك من ملـك الله شيئًا، فعن أبـي ذرٍّ الغفـاري Ç عن النَّبيِّ أ فيما يرويه عن ربِّه عز وجل أنَّه قال: «**يَا عِبَـادي كُلُّكُـم جَائِـعٌ إِلاَّ مَـنْ أَطْعَمْتُـهُ، فَاسْتَطْعِمُـوني أُطْعِمْكُـم، يَـا عِبَـادي كُلُّكُم عَارٍ إِلاَّ مَـنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُوني أَكْسُكُمْ.. يَا عِبَادي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُـوني فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَـا نَقَصَ ذَلِـكَ مِمَّـا عِنْـدِي إِلاَّ كَمَـا يَنْقُصُ المِخْيَـطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ**»[16]، وهذا التَّعبير في الجملـة الأخيرة يراد بـه «التقريب إلى الأفهام بما شاهدوه، فإنَّ البحـر من أعظم المرئيَّـات عيانًا وأكبرها، والإبرة من أصغر الموجودات، مع أنَّهـا صقيلة لا يتعلَّق بهـا ماء»[17]، إذا انغمست في البحر، فكانت الحقيقة أنَّـه لا ينقـص من ملـك الله تعالى أيّ شـيء، ويدلُّ عليـه قولـه أ : «**يَمِينُ اللهِ مَـلأَى لاَ يَغِيضُهَـا نَفَقَـةٌ، سَحَّـاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُذْ خَلَقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّـهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ**»[18].

ومـن كمال غنـاه أنَّ ملكـه سبحانه علـى غاية الكمال لا يزيد بطاعة جميع المخلوقـين ولو كانوا علـى أكمل صفات البـرِّ والتَّقـوى ولا ينقـص بمعصيتهم ولـو كان جميـع الخلق عصـاة قلوبهم علـى أفجر رجل منهـم؛ لأنَّ الله تعالى الغنيُّ المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله: **قَـالَ تَعَـالَى: يَـا عِبَـادِي: لَـوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ**

(14) «جامـع الأصول والأوليـاء» للكمشخاتلي (296)، وانظر: «فصوص الحكم» لابن عربي: (83، 90، 92)، قـال ابن تيمية : في «مجمـوع الفتاوى» (82/2): «ولهـذا يصلون إلى مقـام لا يعتقدون فيه إيجـاب الواجبات وتحريم المحرَّمـات، وإنَّما يـرون الإيجـاب والتَّحريم للمحجوبـين عندهم، الَّذيـن لم يشهـدوا أنَّـه هـو حقيقة الكـون، فمَن العابد؟ ومن المعبود؟ ومن الآمر؟ ومن المأمور؟».

(15) «طريق الهجرتين» (10).

(16) أخرجـه مسلـم (2577) من حديـث أبي ذر الغفاري Ç .

(17) «شرح مسلم» للنووي (133/16).

(18) أخرجه البخـاري (7419)، ومسلم (993) من حديث أبي هريرة Ç .

وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»[19].

ومن كمال غناه وفضله وجوده أنَّ النَّاس كلَّهم عيال عند الله، وهو وحده الغنيُّ، وهم مفتقرون إليه في جلب مصالحهم، ودفع مضارِّهم في أمور دينهم ودنياهم، فهو الَّذي يأمرهم بدعائه ويعدهم بإجابة دعائهم، ويجزيهم من فضله، ويسعفهم من رحمته، ويؤتيهم ما سألوه وطمعوا فيه وما لم يسألوا عنه، فجوده سبحانه على خلقه غير منقطع، ونعمه متواصلة باللَّيل والنَّهار، وخيره على الخلق مدرار ومتواصل، وهو مغني أهل الجنَّة من النَّعيم واللَّذَّات المتواصلات والخيرات المتتابعات، وهو المغني لجميع خلقه غنًى عامًّا، والمغني لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الرَّبَّانيَّة والحقائق الإيمانية.

هذا؛ والله سبحانه إذ يأمر عباده وينهاهم لا لينتفع بطاعتهم ولا ليدفع الضَّرَّ بمعصيتهم، بل النَّفع في ذلك كلِّه لهم، فهو الغنيُّ بذاته الغنى المطلق، وخلقه مفتقر إليه الفقر الذَّاتي، لذلك وجب أن تتَّجه إليه القلوب والعقول والأبصار والأسماع بالخضوع والعبوديَّة الحقَّة، فمنه يستمدُّ العون وبه التَّوفيق تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [سُورَةُ الفَاتِحَةِ].

لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [سُورَةُ فاطر].

[ش. ت]: قال ابن القيِّم ؒ: «والمقصود أنَّه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنَّها فقيرة إليه سبحانه كما أخبر عن ذاته المقدَّسة، وحقيقته أنَّه غنيٌّ حميد.

فالفقر المطلق من كلِّ وجه ثابتٌ لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كلِّ وجهٍ ثابتٌ لذاته تعالى، وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلاَّ فقيرًا، ويستحيل أن يكون الربُّ سبحانه إلاَّ غنيًّا، كما أنَّه يستحيل أن يكون العبد إلاَّ عبدًا الرَّبُّ إلاَّ ربًّا»[20].

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سُورَةُ المَائِدَةِ]، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١﴾ [سُورَةُ يُونُسَ]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [سُورَةُ الأَنْعَامِ].

[ش. ت]: وقد جاءت آيات أخرى في غير مواضع استشهاد المصنِّف تبرز هذا المعنى من غنى الله تعالى وفقر عباده وحاجتهم إليه، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: 38]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ]، وقوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾ [سُورَةُ التَّغَابُنِ]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ]، وقد هدَّد الله تعالى المقلِّبين لهذه الحقيقة المعلومة من الدِّين بالضَّرورة الَّذين أعظموا الفرية على الله بقولهم: إنَّ الله فقير ونحن أغنياء، فقال تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝١٨١﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ].



(19) تقدم تخريجه من حديث أبي ذر الغفاري ؓ.

(20) «طريق الهجرتين» (9).

مسائل منهجية

أسباب الوقاية من الفتن

عباس ولد عمر

إمام خطيب ـ الجزائر

إنَّ إخبار النَّبيِّ ﷺ أمَّته بما يكون بعده من الفتن، لم يكن لتستسلمَ الأمَّة لوقوعها، وتنتظر نزولها؛ ولكن المقصود منه التَّحذير من ملابستها، والتَّخويف من التَّعرُّض لها، والحثُّ على مجانبتها، والتَّحريض على مدافعتها.

عن المقداد بن الأسود قال: ايم الله، لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ السَّعيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفتَنَ، إنَّ السَّعيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفتَنَ، إنَّ السَّعيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفتَنَ، وَلَمَن ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا**»[1].

قوله ﷺ: «فواهًا» كلمة لها استعمالات، منها الإعجاب بالشَّيء والاستطابة له، كأنَّه قال: ما أحسن وأطيب صَبرٌ مَنْ صَبرَ؛ فالمؤمن مطالب بالسَّعي لمجانبة الفتن، لكن إذا نزلت وكانت حتمًا مقدَّرًا، فما عليه إلاَّ أن يجاهد ويصبر حتَّى يرفعها الله سبحانه.

وقد جاءت نصوص الوحي دالَّة على جملة من الأسباب، تقي ـ بإذن الله ـ من أخذَ بها من تلك الفتن إذا نزلت؛ فمنها:

(1) رواه أبو داود (4263)، «الصحيحة» (975).

• **دعاء الله، والاستعاذة به، والتَّضرُّع له، وانكسار القلب بين يديه، وإظهار الافتقار إليه، والتَّبرُّؤ من الحول والقوَّة إلاَّ به:**

ويكون ذلك بسؤال الله سبحانه تثبيت القلب قبل نزول الفتن، والخلاص منها والنَّجاة من شرِّها إذا وقعت عن أمِّ سلمة قالت: كان أكثر دعائه ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ! ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**». قالت: فقلت: يا رسول الله! ما أكثر دعاءك: يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك؟! قال: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ! إنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إلاَّ وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ**»[1].

وعن زيد بن ثابت أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**»، قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن[2].

وفي حديث اختصام الملأ الأعلى: «**وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ**»[3].

• • •

• **العمل بطاعة الله، والإقبال على عبادته، وملازمة تقواه:**

فقد ثبت عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ**»[4]؛ والمقصود من الحديث اغتنام الأوقات، والمسابقة إلى العمل الصَّالح والخيرات، قبل نزول الفتن الَّتي تصرف عن ذلك؛

(1) رواه أحمد (26679)، والتِّرمذي (3522)، «الصَّحيحة» (2091).
(2) رواه مسلم (2867).
(3) رواه أحمد (3484)، والتِّرمذي (3233) عن ابن عبَّاس، «صحيح التَّرغيب» (408).
(4) رواه مسلم (118).

مسائل منهجية

وقد رغب كذلك ﷺ في الانقطاع إلى العبادة زمن الفتنة فقال: «**العبادة في الهرج كهجرة إليَّ**»[5]؛ وفي رواية للإمام أحمد (20311): «**العبادة في الفتنة كالهجرة إليَّ**»؛ والهرج: القتل بتفسير النَّبيِّ ﷺ [6] وهو من الفتنة كما جاء في الرِّواية الثَّانية.

والحديث قد دلَّ على التَّرغيب في العبادة زمن الفتنة، وعلى فضل العبادة ومضاعفة أجرها فيها؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ جعلها كالهجرة إليه، وسبب ذلك أنَّ النَّاس في زمن الفتنة يشتغلون بها، ويغفلون عن العبادة، فلا ينتبه لها إلاَّ القليل.

وفي حديث الوليِّ، قال الله تعالى: «**مَنْ عَادَى لي وَليًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْب، وَمَا تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدِي بشَيْء أَحَبَّ إليَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْه، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنَّوَافل حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وَبَصَرَهُ الَّذي يُبْصرُ به، وَيَدَهُ الَّتي يَبْطشُ بهَا، وَرجْلَهُ الَّتي يَمْشي بهَا، وَإنْ سَأَلَني لأُعْطيَنَّهُ، وَلَئن اسْتَعَاذَني لأُعيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْء أَنَا فَاعلُهُ تَرَدُّدي عَنْ نَفْس المُؤْمن، يَكْرَهُ المَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»[7][8].

فقوله سبحانه: «**كُنْتُ سَمْعَهُ**» إلى قوله: «**يَمْشي بهَا**»، معناه كما ذكر العلماء: أنْ يوفِّقه الله ويسدِّده، فيكون عمله كلُّه في طاعة الله، وسعيه في محابِّ مولاه، ولا يستعمل أعضاءه وجوارحه إلاَّ فيما فيه رضاه؛ فلازمه أنَّ مَن اجتهد في تكميل الواجبات، وزاد عليها بالإكثار من المستحبَّات، لا سيما قبل حلول الفتن المدلهمَّات، فإنَّه سيجد ثمرة تقرُّبه إلى ربِّه، بتثبيته وعصمته من تلك الفتن؛ لأنَّ الله وعد ـ ووعده حقٌّ ـ بحفظ أوليائه وتثبيتهم، وعصمتهم وتسديدهم.

ونظير هذا ما جاء في وصيَّة النَّبيِّ ﷺ لابن عبَّاس: «**احْفَظ اللهَ يَحْفَظْكَ**»[9].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الأنفال]، فوعد ـ سبحانه ـ من عمل بتقواه بأن يجعل له فرقانًا، وهو الهُدى والبصيرة الَّتي يفرِّق بها المؤمن بين الحقِّ والباطل، والهدى والضَّلال، والسُّنَّة والبدعة، ودعاة الرُّشد ودعاة الفتنة.

• • •



● **الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، والتَّزوُّد من علومهما، والتَّمسُّك بما عليه العلماء، ولزوم غَرزهم:**

عن ابن عبَّاس ﭬ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنِّي قَدْ تَرَكْتُ فيكُمْ مَا إن اعْتَصَمْتُمْ به فَلَنْ تَضلُّوا أَبَدًا: كتَابَ الله وَسُنَّةَ نَبيِّه ﷺ**»[10].

وفي حديث حذيفة ﭬ: «كان النَّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشَّرِّ مخافة أن يدركني»، جاء في رواية أبي داود، قال: «**يَا حُذَيْفَةَ! تَعَلَّمْ كتَابَ الله، وَاتَّبعْ مَا فيه**» (ثلاث مرار)، فما زال حذيفة يسأل والنَّبيُّ ﷺ يردِّد له هذه الوصيَّة ثلاثًا[11].

ومِنْ أنفع ما يَقي من الفتن كذلك العلم الشَّرعي المستنبط من الكتاب والسُّنَّة، المنضبط بأصول سلف الأمَّة

ومِنْ أنفع ما يَقي مِنَ الفتن كذلك العلم الشَّرعي المستنبط من الكتاب والسُّنَّة، المنضبط بأصول سلف الأمَّة؛ لأنَّه كما قال ابن سيرين: «**إنَّ هَذَا العلْمَ دينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دينَكُمْ**»[12]، فبالعلم يهتدي المسلم إلى الصِّراط المستقيم، وبالعلم يعرف الحقَّ من الباطل، وبالعلم يميز بين السُّنَّة والبدعة، وبالعلم يدرك الفتنة.

ولمَّا كان العلم من أنفع أسباب الوقاية من الفتن، كان أهله ـ وهم العلماء ـ أوَّل من يتفطَّن لها قبل نزولها، كما قال الحسن البصري: «إنَّ هذه الفتنة إذا أقبلت عرفها كلُّ عالم، وإذا أدبرت

(5) رواه مسلم (2948) عن معقل بن يسار.
(6) رواه البخاري (6037) ومسلم (157).
(7) رواه البخاري (6502).
(8) ينظر لمزيد الفائدة حول نسبة التردد إلى الله سبحانه «مجموع الفتاوى» (135.129/18) فإنه نفيس.
(9) رواه التِّرمذي (2516) وهو صحيح.
(10) رواه الحاكم (318)، «صحيح التَّرغيب» (40).
(11) رواه أبو داود (4246)، وهو حسن.
(12) رواه مسلم في مقدِّمة الصَّحيح.

عرفها كلُّ جاهل»[13].

قال الإمام البخاري في «صحيحه»: وقال ابن عيينة عن خلف بن حوشب: كانوا يستحبُّون أن يتمثَّلوا بهذه الأبيات عند الفتن، قال امرؤ القيس:

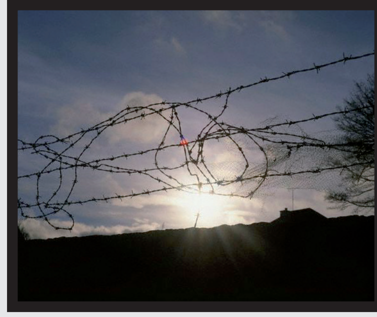
الحرب أوَّل ما تكون فتية
تسعى بزينتها لكلِّ جهولِ
حتَّى إذا اشتعلت وشبَّ ضِرامُهَا
ولَّت عجوزا غيرَ ذاتِ حليلِ
شمطاءَ يُنكَرُ لَوْنُهَا وتغيَّرَتْ
مكروهةً للشَّمِّ والتَّقبيلِ

فإذا علم هذا كان الواجب على أهل الإيمان أن يسيروا خلف علمائهم في زمن الفتنة، حتَّى لا يجرفهم سَيْلُها، لا أن يتقدَّموهم، كما يقع أحيانًا كثيرة؛ تجد العلماء مغيَّبين، والَّذي يتكلَّم ويتصدَّر، ويقود وينظِّر، هم حدثاء الأسنان، وسفهاء الأحلام؛ لا يراعون مصلحة، ولا ينظرون إلى عاقبة؛ دافعهم الحماس والعاطفة، وقائدهم التَّهوُّر والعجلة، فيَجْنُونَ على أنفسهم، ويجرُّون الويلات إلى أمَّتهم.

يدل على هذا قول ربِّنا سبحانه: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ [النساء: 83].

• • •

(13) رواه ابن سعد في «الطَّبقات» (7/166).



• حمل النَّفس على الصَّبر، وتحديثها بالاحتساب:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [سورة آل عمران]، وقال جلَّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الزمر].

وعن أبي سعيد الخدري أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[14].

> **فنبيُّنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إنَّما أكثر من ذكر الفتنة، وأفاض في وصفها؛ حتَّى يستعدَّ لها المؤمن، ويقاومها ويدافعها ما استطاع**

فنبيُّنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إنَّما أكثر من ذكر الفتنة، وأفاض في وصفها؛ حتَّى يستعدَّ لها المؤمن، ويقاومها ويدافعها ما استطاع، ويكون ذلك بحَثِّ النَّفس على الصَّبر، وتذكيرها بما أعدَّ لها من عظيم الأجر، لا سيما إذا قوي داعي الفتنة، وكثر الهالكون فيها؛ عن أنس بن مالك أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ عظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاَءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»[15].

(14) رواه البخاري (1469)، ومسلم (1053).

وعن عُتْبَةَ بن غزوان أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، لِلْمُتَمَسِّكِ فِيهِنَّ يَوْمَئِذٍ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»، قالوا: يا نبيَّ الله! أو منهم؟ قال: «بَلْ مِنْكُمْ»[16].

• • •



• إنكار الفتن بالقلب، وعدم الرُّكون إليها، وترك الخَوْض فيها، والإقلال من الحركة، والتَّحلِّي بالأناة والتُّؤدة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية لتلميذه ابن القيِّم: «لا تجعل قلبك للإيرادات والشُّبهات مثل السِّفنجة، فيتشرَّبها فلا ينضح إلاَّ بها، ولكن اجعله كالزُّجاجة المُصْمَتَة، تمرُّ الشُّبهات بظاهرها ولا تستقرُّ فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلاَّ فإذا أَشْرَبْتَ قلبَك كلَّ شبهة

(15) رواه التِّرمذي (2396)، وابن ماجه (4031)، «الصَّحيحة» (146).

(16) رواه الطَّبراني في «الكبير» (289)، والمروزي في «السُّنَّة»، «الصَّحيحة» (494).

مسائل منهجية

تمرُّ عليها، صار مقرًّا للشُّبهات»[17].

ويشهد لهذه الوصيَّة النَّافعة، ما جاء في رواية لحديث حذيفة السَّابق الَّذي ذكر فيه الفتنة الَّتي تموج كموج البحر، ففيها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالحَصِيرِ، عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فيه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فيه نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالكُوزِ مُجَخِّيًا، لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**»[18].

ففي هذا الحديث: شبَّه النَّبيُّ ﷺ عرض الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى، بعرض قضبان الحصير على ناسجه واحدًا بعد واحد، «**فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا**» أي: رَضيَ بها واطمأنَّ إليها، نقطت فيه نقطة سوداء، وتركت فيه أثرًا، «**وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا**» أي: ردَّها ورفضها، نقطت فيه نقطة بيضاء، حتَّى يصير قلبًا أبيض مصقولاً مثل الصَّفا، وهو الحَجَر الأملس الَّذي لا يعلق به شيء.

وأمَّا القلب الآخر فيصبح أسود مُرْبَادًّا من الرُّبدة، وهو لونٌ بين السَّواد والغُبرة، «**كَالكُوزِ**» إناء معروف، وهو الكوب الَّذي له عروة، «**مُجَخِّيًا**» أي مائلاً أو منكوسًا، شبَّه القلب المفتون بالإناء إذا انكبَّ؛ انصب ما فيه ولم يعلق به شيء، كذلك القلب المفتون، ظلمة الفتن تخرج نور الإسلام منه، فلا يعلق به خيرٌ ولا حكمة، ولا يعرف معروفًا، ولا يُنكر منكرًا، إلاَّ ما وافق الهوى الَّذي خضع لسلطانه[19].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ قال: «**سَتَكُونُ فِتَنٌ، القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي؛ مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ**»[20].

دلَّ هذا الحديث على أنَّ إضلال الفتنة للإنسان يكون بقدر موقفه منها، ومشاركته فيها، فكلَّما تعرَّض لها أكثر، كانت هلكته فيها أعظم، لذلك من استطاع أن يغيب عنها فليفعل، فذلك له أسلم.

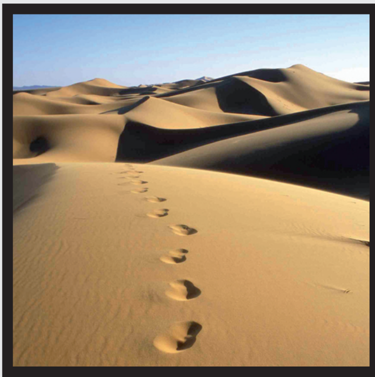
> **وممَّا ينبَّه عليه في هذا المقام؛ أنَّه لا يجب على المسلم أن يكون له حكم أو موقف من كلِّ أمر يحدثُ؛ لأنَّ شأن الفتن ـ لا سيما في زمن اشتدادها ـ الخفاء والالتباس؛ لذلك عليه أن يتأنَّى ويتريَّث، ويتوقَّف ويتثبَّت، فذلك خيرٌ له وأحسن تأويلاً**

وممَّا ينبَّه عليه في هذا المقام؛ أنَّه لا يجب على المسلم أن يكون له حكم أو موقف من كلِّ أمر يحدثُ؛ لأنَّ شأن الفتن ـ لا سيما في زمن اشتدادها ـ الخفاء والالتباس؛ لذلك عليه أن يتأنَّى ويتريَّث، ويتوقَّف ويتثبَّت، فذلك خيرٌ له وأحسن تأويلاً.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ**»[21].

وكما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنَّها ستكون أمور مشتبهات! فعليكم بالتُّؤدة؛ فإنَّك أن تكون تابعًا في الخير خيرٌ من أن تكون رأسًا في الشَّرِّ»[22].

• • •



• الاعتزال في الفتنة، والفرار من مواطنها، والإقبال على النَّفس ومحاسبتها، وترك أمر العامَّة:

فعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ، يتبع بهَا شَعَفَ الجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بدينه مِنَ الفِتَنِ**»[23].

بوَّب البخاري لهذا الحديث في كتاب الإيمان من «صحيحه» بقوله: «باب من الدِّين الفرار من الفتن».

(17) «مفتاح السعادة» (1/443).
(18) رواه مسلم (144).
(19) انظر «شرح النَّووي على مسلم» و«النِّهاية في غريب الحديث والأثر».
(20) رواه البخاري (3601)، ومسلم (2886) واللَّفظ له.
(21) رواه البيهقي (20767)، وأبو يعلى (4256)، «الصَّحيحة» (1795).
(22) رواه ابن أبي شيبة (37177)، والبيهقي في «الشُّعب» (10371).
(23) رواه البخاري (19).

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ بينَ أيديكُمْ فتنًا كقطعِ اللَّيلِ المُظْلمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فيهَا مُؤْمنًا ويُمْسي كافرًا، ويُمْسي مُؤْمنًا ويُصْبحُ كافرًا، القاعدُ فيهَا خيرٌ من القائمِ، والقائمُ فيهَا خيرٌ منَ الماشي، والماشي فيهَا خيرٌ منَ السَّاعي»، قالوا: فما تأمرنا؟! قال: «كُونُوا أحلاسَ بُيُوتكُمْ»[24].

قوله: «أحْلاسَ»: «جَمْع حِلْس، وهو الكِسَاء الَّذي يَلي ظَهْر البعير تحت القَتَب»[25]، والمعنى: الْزَمُوهَا.

وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَمعَ بالدَّجَّال فلْيَنْأ عنْهُ؛ فوالله إنَّ الرَّجُل ليأتيه وهُو يَحْسبُ أنَّهُ مُؤْمنٌ، فيتَّبعُهُ ممَّا يُبْعثُ به منَ الشُّبُهات»[26].

دلَّت هذه الأحاديث على أنَّ سلامة المؤمن في زمن الفتنة، ونجاته منها؛ تكون بالاعتزال فيها، ولزوم البيت، والإقبال على النَّفس.

والمقصود من الاعتزال ولزوم البيت: مفارقة الشَّرِّ وأهله، فلا يمنع ذلك من شهود الجمعة والجماعة، والقيام بما وجب من الحقوق، ومناصحة الإخوان، والاجتماع معهم على الخير، والتَّواصي بالحقِّ والصَّبر.

(24) رواه أحمد (19662)، وأبو داود (4262)، صحيح.
(25) «النِّهاية في غريب الحديث والأثر».
(26) رواه أحمد (19875)، وأبو داود (4319)، «صحيح الجامع» (6301).

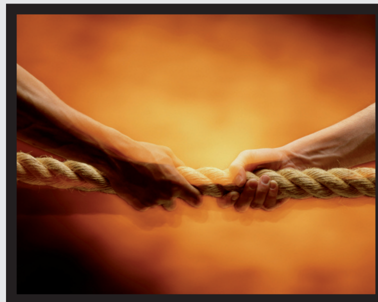
والمقصود من الاعتزال ولزوم البيت: مفارقة الشَّرِّ وأهله، فلا يمنع ذلك من شهود الجمعة والجماعة، والقيام بما وجب من الحقوق، ومناصحة الإخوان، والاجتماع معهم على الخير، والتَّواصي بالحقِّ والصَّبر.

كما دلَّ حديث عمران بن حصين على وجوب الابتعاد عن مواطن الفتنة، ومجانبة مواضع الشُّبهة، وأن لا يزكِّي المؤمن نفسه، ويعجب بإيمانه؛ لأنَّه قد يوكل إليها، فيهلك مع من أهلكته الفتنة.

وممَّا يدخل تحت ذلك: مصاحبة أهل الأهواء، والنَّظر في كتبهم، وحضور مجالسهم، فإنَّها من أكبر الفتن الَّتي تُفسد على المؤمن دينه.

ذكر الذَّهبيُّ في ترجمة الإمام سفيان الثَّوري قوله: «منْ أصغى بسمعه إلى صاحب بدعة وهو يعلم، خرج من عصمة الله، ووكل إلى نفسه».

• • •



• لزوم جماعة المسلمين، والسَّمع والطَّاعة في المعروف لإمامهم:

وهذا ممَّا تتأكَّد الوصيَّة به في فتن الخروج على الحكَّام، ومنازعة الأمر أهله، الَّتي يحدثها دعاة الثَّورات، ومن يسلك مسلك التَّغيير بالانقلابات، وهم في ذلك لخطى الخوراج مقتفون، ولمذهبهم معتقدون، وإن خدعوا النَّاس بالتَّبرُّؤ من رأيهم المأفون.

يدلُّ على هذه الوصيَّة حديث حذيفة: «كان النَّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشَّرِّ مخافة أن يدركني».

فممَّا ورد فيه: «فقلت: هل بعد ذلك الخير من شرٍّ؟ قال: نَعَمْ، دُعَاةٌ علَى أبْوابِ جهنَّم، منْ أجابهُمْ إليْهَا قذفُوهُ فيهَا».

فقلت: يا رسول الله! صفهم لنا، قال: «نعَمْ، قوْمٌ منْ جلْدَتنَا، ويتكلَّمُونَ بألْسنتنَا»، قلت: يا رسول الله! فما ترى إن أدركني ذلك؟ قال: «تلْزمُ جماعةَ المُسْلمينَ وإمامَهُمْ».

فقلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام؟

قال: «فاعْتَزلْ تلْكَ الفرَقَ كُلَّهَا، ولَوْ أنْ تعضَّ علَى أصْلِ شجرة، حتَّى يُدْركك المَوْتُ وأنْت علَى ذلكَ»[27].

قال ابن حجر رحمه الله:

«و[المراد] بالدُّعاة على أبواب جهنَّم، من قام في طلب الملك من الخوارج وغيرهم، وإلى ذلك الإشارة بقوله: «الْزَمْ جماعةَ المُسْلمينَ وإمامَهُمْ»، يعني ولو جار»[28].

(27) رواه البخاري (3606، 7084)، ومسلم (1847).
(28) «فتح الباري» (13/46).

وأمَّا جماعة المسلمين؛ فالمقصود بها كما قال الإمام الطَّبري:

«والصَّواب أنَّ المراد من الخبر، لزوم الجماعة الَّذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره، فمن نكث بيعته خرج عن الجماعة»[29].

ولخطورة هذا الأمر، قد جاءت النُّصوص مستفيضة تأمر بالسَّمع والطَّاعة في المعروف لأولياء الأمور وإن جاروا، وتزجر عن منازعة الأمر أهله، ونزع اليد من الطَّاعة وإن حادوا[30].

وحسبنا أن نذكر من ذلك وصيَّة نبيِّنا ﷺ، كما في حديث العرباض ابن سارية رضي الله عنه:

«أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ...»[31].

وأمَّا إن لم يكن للنَّاس إمامٌ تجتمع عليه الكلمة، فتنازعوا في الأمر قددًا، وتفرَّقوا أحزابًا وشِيَعًا، فالواجب عند ذلك اعتزال جميع المختلفين، وعدم التَّحيُّز إلى أيِّ فئة من المتنازعين، كما دلَّ عليه تمام الحديث[32].



هذا ما يسَّر الله جمعه من أسباب الوقاية من الفتن، نسأله ـ سبحانه ـ أن يعصمنا من شرِّها، ويسلِّمنا من ضَرَرِها.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدِّين.



(29) نقل كلامه هذا والَّذي يأتي بعده ابن حجر في «فتح الباري» (47/13).
(30) يراجع كتاب الإمارة من «صحيح الإمام مسلم» فقد أودع فيه المهمَّ من أخبار الباب.
(31) رواه أحمد (17144، 17145)، وأبو داود (4607)، والتِّرمذي (2676)، وابن ماجه (42)، «صحيح الجامع» (2549).
(32) وانظر كلام الطبري في فتح الباري (463/2).

سيرة وتاريخ

صفة النبي ﷺ في التوراة

حسن أيت علجت

روى الإمامُ البخاري : في «صحيحه» (2125) عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ:

لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ؟ قَالَ: أَجَلْ؛ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ:

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّل، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ؛ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ الْعَوْجَاءَ؛ بِأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا».

لَقَدِ اشْتَمَلَ هذا الأَثَرُ على وَصْفِ النبيِّ محمَّدٍ ﷺ في التَّوْرَاة، ووَصْفِ دعْوَته القَويمَة، وأَخْلاقِه المُسْتَقيمَة، وشَريعَته العَظيمَة.

وجاءَ في الإنْجيلِ - أيْضًا - قريبًا من هذا، كما في حديث عائشة رضي الله عنها أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**مَكْتُوبٌ في الإنْجيلِ: لا فَظٌّ ولا غَليظٌ ولا سَخَّابٌ بالأَسْوَاقِ، ولا يَجْزي بالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا؛ بَلْ يَعْفُو ويَصْفَحُ**»[1].

(1) حسن: رواه الحاكم وابن عساكر، انظر: «الصحيحة» (2458).

والتَّوراةُ هي الكتَابُ الذي أَنْزَلَهُ اللَّهُ تعالى على نَبِيِّ الله مُوسَى عليه السلام، أَحَدِ الأَنْبِيَاءِ العِظَامِ مِنْ أُولِي العَزْمِ من الرُّسُل.

وأَحْيَانًا يَكُونُ المقْصُودُ بالتَّوراة أَعَمَّ مِنْ ذلك؛ إذْ قال شيخُ الإسلام ابْنُ تيمية : في «النُّبُوَّات» (ص289): «ويُرَادُ بالتَّوْرَاة الكِتَابُ الَّذي جَاءَ به مُوسَى، وما بَعْدَهُ مِنْ نُبُوَّة الأَنْبِيَاءِ المُتَّبِعينَ لِكتَاب مُوسَى؛ قَدْ يُسَمَّى هذا كُلُّهُ تَوْرَاةً؛ فَإنَّ التَّوراةَ تُفَسَّرُ بالشَّرِيعَة، فَكُلُّ مَنْ دَانَ بِشَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ قِيلَ لِنُبُوَّته: إنَّها مِنَ التَّوْرَاة».

ومِنْ خَصَائِصِ التَّوْرَاة أَنَّهَا الكتَابُ الذي لَمْ يُنَزَّلْ مِنَ السَّمَاءِ كتَابٌ أَهْدَى مِنْهُ ومِنَ القُرْآن؛ لهذا قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [سُورَةُ القَصَصِ].

مِنْ أَجْلِ ذلك؛ فإنَّ اللَّه تعالى كَثِيرًا ما يَقْرِنُ بيْنَ التَّوراة والقُرآن، وذلك في مِثْلِ قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سُورَةُ الأَنْعَامِ]، وقوْلِه تعالى حكايَةً عن مُؤْمني الجِنِّ: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [سُورَةُ الأَحْقَافِ]، وقوْلِه تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ [سُورَةُ الأَحْقَافِ][1].

قال ابْنُ تيمية : في «الجواب الصَّحيح» (116/1): «والقُرآنُ أَصْلٌ كَالتَّوْرَاة، وإنْ كانَ أَعْظَمَ منْها؛ ولهذا عُلَماءُ النَّصارى يَقْرِنُونَ بَيْنَ موسى ومحمَّدٍ ﷺ، كَمَا قال

(1) انظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (202/16).

سيرة وتاريخ



النجاشيُّ مَلِكُ النَّصارى لمَّا سَمِعَ القُرآنَ: «إنَّ هَذا وَالَّذي جَاءَ به مُوسَى، لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ»[2]، وكذلك قَالَ ورَقَةُ بْنُ نَوْفَل. وهو مِنْ أَحْبَارِ نَصَارَى العَرَب. لمَّا سَمِعَ كَلامَ النبيِّ ﷺ، فقال له: إنَّه يأتيك النَّامُوسُ[3] الذي يَأْتِي مُوسَى، يا لَيْتَني فيهَا جَذَعًا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فقال النبيُّ ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ ؟!» قَالَ: نَعَمْ؛ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ؛ إلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ؛ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا[4]» اهـ.

وسَبَبُ اقْتِرَانِ التَّوراةِ بالقُرآنِ هو أَنَّهُمَا الكِتَابَانِ اللَّذانِ اخْتَصَّا بِتَفْصِيلِ الأَحْكَامِ، وذِكْرِ الحَلالِ والحَرَام.

وقَدْ جَاءَ في هذه التَّوراةِ ذِكْرُ البِشَارَةِ بالنَّبيِّ ﷺ، كَمَا قَالَ اللّه ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: 157]، بَلْ ذُكِرَ فيهَا حتَّى أَصْحَابُ نَبيِّنا ﷺ عليهم من اللّه الرِّضوان، فقد قال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [الفتح: 29].

وجَاءَ في هذا الخَبَرِ الصَّحيح - أيضا - ذِكْرُ طَرَفٍ مِنْ أَوْصَافِ النبيِّ ﷺ الوَارِدَةِ في التَّوراة، وهو من رواية عَبْدِ اللّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما الإِمَامِ الحَبْرِ، العَابِدِ، صَاحِبِ رَسُولِ اللّه ﷺ وَابْنِ صَاحِبِه، ومِنَ الأُمُورِ التي وَرَدَتْ في تَرْجَمَتِه ممَّا له تَعَلُّقٌ بروايته لهذا الأثر، ما ذَكَرَهُ الإمامُ الذَّهبي رحمه الله: في «سِيَرِ أَعْلامِ النُّبَلاء» (81/3) مِنْ أَنَّهُ رَوَى عَنْ أَهْلِ الكِتَابِ، وَأَدْمَنَ النَّظَرَ في كُتُبِهم، وَاعْتَنَى بِذَلِكَ.



وأَوَّلُ هذه الأَوْصَافِ المَذْكُورَةِ في هذا الأَثَرِ هي: «**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**».

وهذا الوَصْفُ وَرَدَ في مَوْضِعَيْنِ مِنَ القرآن الكريم:

أَوَّلُهُما: في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة الأحزاب].

والثَّاني: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الفتح].

«وهذه الأَشْيَاءُ الَّتي وَصَفَ اللّهُ بها رسُولَه محمَّدًا ﷺ هي المَقْصُودُ من رِسالَتِه، وزُبْدَتُها وأُصُولُها الَّتي اخْتَصَّ بها:

الوَصْفُ الأَوَّلُ: كَوْنُه ﴿شَٰهِدًا﴾، وهذه الشهادة تَتَضَمَّنُ ثلاثةَ أُمُورٍ:

أَوَّلاً: الشَّهَادَةُ لأُمَّتِه ﷺ بما فَعَلُوه مِنْ خَيْرٍ وشَرٍّ، كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143]، وقال: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة النساء]؛ فهو ﷺ شَاهِدٌ عَدْلٌ مَقْبُولٌ.

ثانيا: الشَّهَادَةُ على المَقَالاتِ والمَسَائِلِ حَقِّها وبَاطِلِها، فَمَا شَهِدَ له الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الأَفْعَالِ والأَقْوَالِ بِمَا ثَبَتَ في سنَّته؛ فهو حَقٌّ، وما سِوَاه فهو بَاطِلٌ مَرْدُودٌ، كما جاء في «الصَّحيحين» عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**».

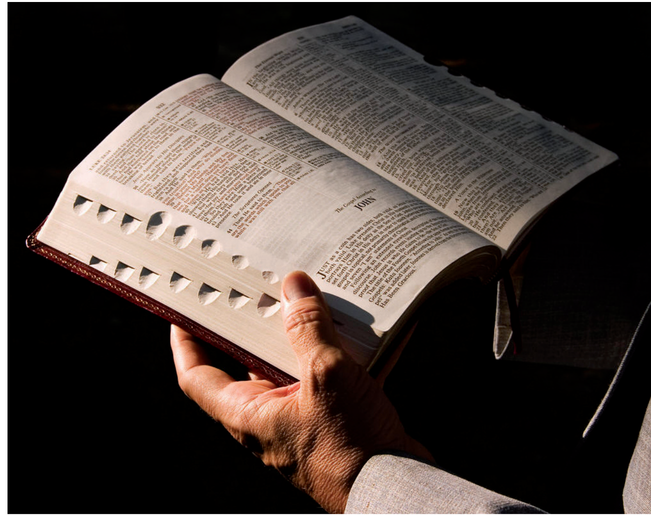
(2) أَثَرٌ صَحيحُ الإسناد: رواه أحمد (1740) عن أُمِّ سلمة رضي الله عنها، انظر: تخريجَ أحاديث «فقه السيرة» (ص 115).

(3) أَيْ: صَاحِبُ السِّرِّ، وهو جِبْرِيلُ الأَمِينُ عليه السلام. «نهاية».

(4) رواه البخاري (4)، ومسلم (160) عن عائشة رضي الله عنها بلفظٍ مُقَارِبٍ.

ثالثا: الشَّهادَةُ للَّه ـ جَلَّ وعلا ـ بالوَحْدَانيَّة، والانْفِرَادِ بالكَمَال مِنْ كُلِّ وجْه.

الوَصْفُ الثاني والثَّالث: كَوْنُهُ ﷺ مبشِّرًا ونذيرًا، ويوَضِّحُ هذا قَوْلُه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ].



وهذا يسْتَلْزِمُ ذِكْرَ المُبَشَّر والمُنْـذَر، وما يُبَشَّرُ به ويُنْذَرُ، والأَعْمَالَ المُوجبَةَ لذلك.

فالمُبَشَّـرُ هُـمُ المؤمنـون المُتَّقُون، الذيـن جَمَعُـوا بين الإيمـان والعَمَـلِ الصَّالِـح، وترْك المعاصي؛ لهم البُشْرَى في الحَيَـاة الدُّنْيَا بـكُلِّ ثَوَابٍ دُنْيَـوِيٍّ ودِينِـيٍّ رُتِّـبَ علـى الإيمان والتَّقْوَى، وفي الأُخْرَى بالنَّعيم المُقِيم.

وذلك كُلُّه يَسْتَلْزِمُ ذِكْرَ تَفْصِيلِ المَذْكُور مِنْ تَفَاصِيلِ الأَعْمَالِ، وخِصَالِ التَّقْوَى، وأَنْوَاع الثَّوَاب.

والمُنْـذَرُ هـم المُجْرِمُون الظَّالمُـون، أَهْلُ الظُّلْـم والجَهْل؛ لهم النِّـذَارَةُ في الدُّنيا مـن العُقُوبات الدُّنيوية والدِّينيَّـة المُتَرَتِّبَة على الجَهْلِ والظُّلْم، وفي الأُخْرَى بالعِقَاب الوَبِيل، والعَذَاب الطَّويل.

وهـذه الجُمْلَةُ تَفْصِيلُها، ما جَاءَ بِهِ ﷺ مـن الكِتَابِ والسُّنَّة المُشْتَمِلِ على ذلك»[5].

■■■

ومـنَ الشَّمَائِل النَّبويَّة الوَارِدَة في التَّـوراة: كَوْنُه ﷺ: «**حِرْزًا للأُمِّـيِّين**»؛ أيْ: حِصْنًـا للأُمِّـيِّين، وهم الذيـن لا كتاب لهم من العرب وغيرهم.

■■■

ومـنْ هـذا قَوْلُـهُ تعـالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [سُورَةُ الجُمُعَةِ].

ومعنى كَوْنه حِصْنًا، أيْ: حافظًا لهُم منْ كُلِّ سُوءٍ وشرٍّ دُنْيَوِيٍّ وأُخْرَوِيٍّ، ومِصْداقُ ذلك قوْلُه ﷻ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ].

وهكـذا الأنبيـاء ـ عليهـم السلام ـ، ومَنْ سَارَ على نَهْجِهم من الدُّعاة إلى اللَّه ﷻ؛ فإنَّهم يتحاشَوْن تَعْرِيضَ أَتْبَاعِهم لأيِّ مَكْـروه، ويُجَنِّبونَهُم كُلَّ بَلاءٍ ما اسْتَطَاعـوا إلى ذلـك سَبيـلاً، خلافًا لبَعْضِ مَنْ خَالَفَ مَنهجَ الأَنْبِيَاء في الدَّعْوَة إلى اللَّه ﷻ، وتَنَكَّبَ جادَّتَهُم؛ فإنَّه لا يَرْعَوِي أنْ يُعَرِّضَ بَلَدًا كَامِـلاً للدَّمار والخَـرَاب مـنْ أَجْـلِ الحفاظ على شَخْصِه، ويَوَدُّ لَوْ يَفْتَدِي بِأَتْبَاعِهِ من كُلِّ بَلاءٍ يَنْزِلُ بِهِ!

■■■

ومن أَوْصَاف النَّبيِّ ﷺ المَذْكُورَة في التَّوْرَاة كوْنُه عبْدًا رَسُولاً، وذلك في قَوْله: «**أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولي**».

■■■

وهـذه العُبُوديَّةُ المَذْكُورَةُ هنـا، هي عُبُوديَّـةٌ اخْتِيَاريَّةٌ خَاصَّةٌ بأنْبِيَائِـه وأَوْلِيَائِـه ـ سبحانه ـ، وهي تَقْتَضِـي التَّشْرِيفَ والتَّكْريمَ، وبإزَائِهـا العُبُوديَّةُ العَامَّـةُ الاضْطِرَاريَّةُ الشَّامِلَـةُ لِجَميع الخَلْق، وتَقْتَضِي الهَيْمَنَةَ والقَهْرَ[6].

وقـد ذَكَرَ اللَّهُ ﷻ نَبِيَّـهُ محمَّدًا ﷺ ـ وهو أَكْرَمُ الخَلْق عليه، وأَحَبُّهم إلَيْه ـ بالعُبُوديَّة في أشْرَف مَقَامَاته وأفْضَل أحْوَاله؛ وذلك في مَقَـام الدُّعَاء، ومَقَـام التَّحدِّي بـأنْ يَأْتُوا بمِثْل هـذا القُرْآن، ومَقَام الإسْرَاء، ومَقَام إنْزَالِ القُرآن، ومَقَام الإيحَاء:

(5) عن «تفسير السعدي» (ص 614 وص 736. ط: مؤسسة الرسالة) بتصرُّف وزيادات يسيرة.

(6) انظر لبيان ذلك «فتاوى ابن تيمية» (1/43 ـ 44)، و«القول المفيد» للشيخ ابن عثيمين (1/33 ـ ط: ابن الجوزي).

سيرة وتاريخ

ففي مَقَام الدُّعَاء قال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ۝١٩﴾ [سُورَةُ الجِنِّ].

وفي مَقَام التَّحـدِّي قال Y: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٣﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

وفي مقـام الإسْرَاء قال سبحانه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١﴾ [سُورَةُ الإِسْرَاءِ].

وفي مقـام إنْـزَال القـرآن قـال Y: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [سُورَةُ الفُرْقَانِ]، وقـال أيضًـا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾ [سُورَةُ الكَهْفِ].

وفي مَقـام الإيحَـاء قـال سبحانـه: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠﴾ [سُورَةُ النَّجْمِ][7].

وقـد خُيِّرَ نبيُّنـا أ بيْن أنْ يكُونَ عَبْدًا رَسُـولا، أو نَبِيًّا مَلِكًا؛ فاخْتَارَ أنْ يكونَ عَبْدًا رسُولاً، كما جاء ذلك في حديث أبي هُرَيْرَةَ Ç قَـالَ: جَلَسَ جِبْرِيـلُ إِلَى النَّبِيِّ أ، فَنَظَـرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَـإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيـلُ: إِنَّ هَذَا مَلَكٌ مَا نَزَلَ مُنْذُ خُلِقَ قَبْـلَ السَّاعَةِ! فَلَمَّا نَزَلَ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ: أَمَلِكًا أَجْعَلُـكَ، أَمْ عَبْدًا رَسُولاً؟ قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ، قَالَ: «**بَلْ عَبْدًا رَسُولاً**»[8].

وفي هـذا جـاء الحديثُ الـذي رواه الإمـامُ البخـاري في «صحيحـه» (3445) عـنْ ابْـنِ عَبَّـاس È، أنَّه سَمِـعَ عُمَرَ Ç يَقُـولُ عَلَى المِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِـيَّ أ يَقُولُ: «**لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَـا أَنَا عَبْدُهُ؛ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**».

وفي قولـه: «**أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي**» ردٌّ على طَائفَتَيْن مُنْحَرفَتَيْن عَنْ سَوَاءِ السَّبِيل:

الأولى: مُفْـرِطَـةٌ غَاليَـةٌ، رفَعَتْـهُ أ فَـوْقَ مَنْزِلَتـه، فجَعَلَتْهُ فَوْقَ مَرتَبَـة العُبُودِيَّة، بَلْ في مَرْتَبَة الرُّبُوبية والأُلُوهيَّة، حتَّى صَارَ عِنْدَهَا إلَهًا، ورُبَّما تُطْلَبُ منه الحَوَائِجُ.

الثانيـة: مُفَرِّطَـةٌ مُقَصِّـرَةٌ، لَمْ تَعْرِفْ مَنْزِلَـةَ النَّبِيِّ أ ولا قَـدْرَهُ ولا حُقُوقَه؛ فَلَمْ تَرْفَعْ بهَدْيِه رأْسًا، بَلْ نَبَذَتْ ما جاءَ به وراءَ ظَهْرِهَا، واعْتَمَدَتْ على الآراء المُحْدَثَة، واتَّبَعَت الأهواءَ المُضِلَّةَ.

فوَصْفُـهُ بالعُبُودِيَّة رَدٌّ على الغُـلاة، ووَصْفُهُ بالرِّسَالَة ردٌّ على الجُفاة.



ومِنْ أوْصَافِ النبيِّ أ المَذْكُورَة في التَّوراة كوْنُه مُتَوَكِّلاً على اللهِ تعـالى، بل صَـارَ هذا الوصْـفُ اسْمًا له، وعَلَمًـا عليه؛ لشِدَّة اقْتِرَانـه به، ولُزوم النبيِّ أ لهذه العِبَادَة العَظِيمَة، كما جاء في هذا الأثَر: «**سَمَّيْتُكَ المتوَكِّل**».



والتَّـوكُّلُ لُغَـةً هـو التَّفْوِيضُ والاعْتِمَـادُ، أمَّا شَرْعًـا فقد قال الحافظُ ابنُ رَجَب : في «جامع العُلُوم والحِكَم» (356/2 ـ ط: دار الخيـر): «وحقيقةُ التوكُّل هو: صِـدْقُ اعْتِمَادِ القَلْب علَى اللهِ Y في اسْتِجْـلاب المَنَافع، ودَفْعِ المَضَارِّ مِـنْ أُمُور الدُّنْيَا والآخرة كُلِّهَـا ووكِّلت الأمور كلِّهـا إليه، وتَحْقيقُ الإيمَـانِ بأنَّه لا يُعْطِي ولا يَمْنَعُ ولا يَضُرُّ ولا يَنْفَعُ سِوَاهُ»اهـ.

وقَد امْتَثَلَ رَسُولُ الله أ أَمْرَ ربِّه Y بالتَّوكُّل عليه؛ إذْ أَمَرَهُ بذلك في مَوَاضِعَ عِدَّة من القُرآن الكريم، وذلك في مِثْلِ قوْلِه Y: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ]، وقوْلـه تعـالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الفُرْقَان: 58]، وقولـه Y: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ۝٧٩﴾ [سُورَةُ النَّمْلِ]، وقولـه Y: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝٣﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ].



ومن الشَّمائل النَّبَوِيَّة المَذْكُورة في هذا الأثَرِ كَوْنُه أ: «**لَيْسَ بفَظٍّ وَلاَ غَلِيظ**».



فَبَعْـدَ ذِكْرِ حُسْـنِ مُعامَلَته مع الحقِّ ـ تبارك وتعـالى ـ بتَوَكُّلِه

(7) انظـر: «فتـاوى ابـن تيمية» (152/10)، و«الجـواب الكافي» لابـن القيم (ص 132).

(8) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، انظر: «الصحيحة» (1002).

سيرة وتاريخ

عليه، جاءَ ذِكْرُ حُسْنِ معامَلَته مع الخَلْقِ، وكَمالِ أخْلاقه في عِشْرَتِهم وخلْطَتِهِم.

والفَظَاظَةُ والغِلْظَةُ مُتَقاربَتَان في المعْنَى، وهُمَا ضدُّ اللِّين والرِّفْق اللَّذَيْن كانا خُلُقَ النبيِّ أ كما قال y: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

وهذا اللِّينُ يَنْجُمُ عنه حُسْنُ مُعَاشَرَة النَّاس، والانْبساطُ إلَيْهِم والتبَسُّمُ في وجُوهِهِم، وهكذا كان خُلُقُ النبيِّ أ؛ ففي «الصَّحيحيْن» عَنْ جَرير بْن عبد الله البَجَليِّ قَالَ: «مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ أ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلاَ رَآنِي إلاَّ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي»؛ ولهذا تَرْجَمَ الإمامُ البخاريُّ في «الأدب المفرد» (ص 95) لهذا الأثَر الَّذي فيه صِفَةُ النَّبيِّ أ في التَّوْرَاة بقوله: «بابُ الانْبِسَاطِ إلى النَّاسِ».

وبَعْدَ أنْ وَرَدَ في هذا الأثَر ذِكْرُ اسْتِقامَة جَوَارح النبيِّ أ المُبَارَكَة، جَاءَ ذِكْرُ اسْتِقَامَة لِسَانه الشَّريف، وذلك بوَصْفه: **«وَلا سَخَّابٍ في الأَسْوَاقِ»**.

والسَّخَبُ. ويُقالُ أيضا: الصَّخَبُ. هو رَفْعُ الصَّوْت بالخِصَام كحَالِ مَنْ لا حلْمَ له ولاَ وَقَارَ، وخُصَّت الأسْوَاقُ بالذِّكْر لكَثْرَة ما يَجْرِي فيها مِنَ الصَّخَب واللَّغَط؛ ولهذا تَرْجَمَ الإمامُ البخاريُّ لِهَذَا الأثَر في «صحيحه» بقَوْله: «بَابُ كَرَاهِيَةِ السَّخَبِ في السُّوقِ».

ومِنَ الأخْلاَق النَّبَويَّة المذْكُورَة في هذا الأثَر كوْنُه أ: **«لا يَدْفَعُ بالسَّيِّئَة السَّيِّئَةَ؛ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ»**.

والنَّبيُّ أ في هذا مُتَخَلِّقٌ بأخْلاَق القُرْآن؛ إذْ قال اللهُ y مخاطبًا نبيَّهُ أ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦﴾ [سورة المؤمنون]، وقال y: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ۝٣٤﴾ [سورة فصلت]، وقال y: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣﴾ [سورة المائدة]، وقال سبحانه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159].

ثُمَّ جاء في وَصْفه أ في التَّوراة: **«وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقيمَ به الْملَّةَ الْعَوْجَاءَ»**.

أي: لَنْ يُميتَ اللهُ y هذا النبيَّ الكريمَ أ حتَّى يُقيمَ به المِلَّة العَوْجَاء، وفُسِّرَتْ بتفسيرَيْن:

الأول: ما ذَكَرَهُ القَاضي عيَاض : في «مشارق الأنْوَار» (104/2) حيث قال: «يعني مِلَّةَ إبْرَاهيمَ - مِلَّةَ الإسْلاَم - التي غَيَّرَتْهَا الجاهليَّةُ عَنْ اسْتقَامَتهَا، وأمالَتْهَا بَعْدَ قَوَامهَا» اهـ.

وَوَجْهُ ذلك أنَّ الحَنيفيَّةَ الَّتي هي مِلَّةُ إبراهيمَ o، مَأْخُوذَةٌ مِنَ الحَنَف وهو المَيْلُ؛ لأنَّها مَالَتْ عن جميع طُرُق الضَّلال إلى الطَّريق الذي رَضيَهُ اللهُ y، فقيلَ لَهَا: «المِلَّةُ العَوْجَاءُ»؛ لأنَّ فيها مَيْلاً واعْوِجَاجًا عن طريق الشِّرْك إلى طريق التوحيد، وعن أهْلِ الشِّرْك إلى أهْلِ التَّوحيد[9].

الثاني: ما ذَكَرَهُ ابْنُ بطال في «شرح صحيح البخاري» (6/ 254)، حَيْثُ قال: «المِلَّةُ العَوْجَاءُ: المُعْوَجَّة، وهيَ مِلَّةُ الكُفْر؛ فَأَقَامَ اللهُ بِنَبِيِّه عِوَجَ الكُفْر حَتَّى ظَهَرَ دِينُ الإسْلاَم، وَوَضَحَتْ أعْلاَمُهُ» اهـ.

وفي هذا الصَّدَد قال الإمامُ ابنُ القيِّم : في «الصَّوَاعق المُرْسَلَة» (1/ 148 - 149) واصفًا حَالَ النَّاس قَبْلَ البعْثَة: «وكَانَت الأُمَمُ - إذْ ذَاكَ - ما بَيْنَ مُشْركٍ بالرَّحْمَن؛ عَابدٍ للأوْثَان، وعَابدٍ للنِّيرَان، وعَابدٍ للصُّلْبَان أوْ عَابدٍ للشَّمْس والقَمَر والنُّجُوم، كَافرٍ بالله الحيِّ القيُّوم، أوْ تَائه في بَيْدَاء ضَلاَلَته حيْرَان، قَد اسْتَهْوَاهُ الشَّيْطَان، وَسَدَّ عَلَيْه طَريقَ الهُدَى والإيمَان» اهـ.

ثُمَّ جاء في هذا الأثَر: **«بأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ»**.

---

(9) هذا الكلامُ مُسْتَفَادٌ مِنْ شَريط مَسْمُوع لمعالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، فيه شَرْحُ كتَاب «فَضْل الإسلام».

وهذه الكلمةُ الطيِّبَةُ - كلمةُ التَّوحيد - هي الَّتي بَعَثَ اللهُ y بها رَسُولَهُ مُحَمَّدًا أ ، وهي أصلُ دينِ الإسلام الذي أنزَلَ اللهُ به كُتبَهُ، وأرسَلَ به رُسُلَهُ.

وبها ابْتَدَأَ النبيُّ أ دعوتَهُ؛ فعَنْ طارقٍ المُحَاربيِّ Ç قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله أ في سُوقِ ذي المَجَازِ، وعَلَيْه حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، وَهُوَ يَقُولُ: «**يا أيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لا إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ تُفلحُوا...**» الحديث[10].

فتبيَّنَ من هذا أنَّ حقيقةَ دَعْوَة النَّبيِّ أ وأُسَّهَا الذي قامَتْ عليه هو تَقْريرُ التَّوحيد، وتَحْقيقُ مَعْنَى «لا إلَهَ إلاَّ الله»، وذلك امْتثالاً لأمْرِ الله y نَبيَّهُ أ ، ومنْ وَرَائه أُمَّتَهُ بقوْله: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد : 19].

ثُمَّ جاءَ بَعْدَ ذلك وَصْفُ دَعْوَة النبيِّ أ في التَّوْرَاة بأنَّه: «**يَفتَحُ بِهَا أَعيُنًا عُميًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلوبًا غُلفًا**».

قال المُلاَّ علي القاري في «مرقاة المفاتيح» (16/ 420): «**وَقُلوبًا غُلفًا**» بِضَمٍّ أوَّلِه: جَمْعُ أغْلَفُ، وهو الَّذي لا يَفْهَمُ، كَأَنَّ قَلْبَهُ في غلاف.

وإنَّما ذَكَرَ هذه الأعْضَاءَ؛ لأنَّهَا آلاتٌ للعُلُوم والمَعَارف، قال تعالى في حَقِّ الكُفَّار: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ [البقرة : 7]، وقال: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة : 171]، ولعَلَّه لَمْ يَذْكُر اللِّسَانَ في مَعْرض هذا البَيَان؛ لأنَّه تَرْجُمَانُ الجنَان، والإنَاءُ يَتَرَشَّحُ بمَا فيه منَ الأعْيَان» اهـ.

وفي هذه الجملة - كما قال الإمام ابن القيم - في «هدَايَة الحَيَارَى» (ص 76): «إشَارَةٌ إلى تَكْميل مَرَاتب العلْم والهُدَى الحَاصل بدَعْوَته في القُلُوب والأبْصَار والأسْمَاع، فَبَايَنُوا بذلك أحْوَالَ الصُّمِّ البُكْم العُمْي الَّذينَ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَعْقلُونَ بهَا، فَإنَّ الهُدَى يَصلُ إلى العَبْد منْ هَذه الأبْوَاب الثَّلاثَة، وهيَ مُغْلَقَةٌ عَنْ كُلِّ أحَد، لا تُفْتَحُ إلاَّ على أيْدي الرُّسُل، ففتَحَ اللهُ بمُحَمَّد أ الأعْيُنَ العُمْيَ فَأبْصَرَتْ بالله، والآذَانَ الصُّمَّ فَسَمعَتْ عَن الله، والقُلُوبَ الغُلْفَ فَعَقلَتْ عَن الله؛ فانْقَادَتْ لطَاعَته عَقْلاً وقَوْلاً وعَمَلاً، وسَلَكَتْ سُبُلَ مَرْضَاته ذُلُلاً» اهـ.

ومنْ فَرَائد الفَوَائد، ما ذَكَرَهُ شَيْخُ الإسلام ابْنُ تيمية : منَ الفُرُوق بين الأنْبيَاء ‡ والسَّحَرَة، وتَأْثير كُلٍّ منْ هَؤُلاء وهَؤُلاء على القُلُوب والأبْصَار والأسْمَاع، فقال في «النبوَّات» (ص 289 - 290): «فالسَّاحرُ يُفْسدُ الإدْرَاكَ، حتَّى يَسْمَعَ الإنْسَانُ الشَّيْءَ، ويَرَاهُ، ويَتَصَوَّرُهُ خلافَ ما هو عليه، والأنْبيَاءُ يُصَحِّحُون سَمْعَ الإنسان وبَصَرَهُ وعَقْلَهُ، والَّذين خَالَفُوهُمْ ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [سورة البقرة]؛ فالسَّحَرَةُ يَزِيدُون النَّاسَ عَمًى وصَمَمًا وبكَمًا، والأنْبيَاءُ يَرْفَعُونَ عَمَاهُمْ وصَمَمَهُمْ وبكَمَهُم».

إلى أنْ قَالَ : «والمَقْصُودُ هُنَا أنَّ الأنْبيَاءَ يَفْتَحُون الأعْيُنَ العُمْيَ، والآذان الصُّمَّ، والقُلُوبَ الغُلْفَ، والسَّحَرَةُ يُفْسدُون السَّمْعَ والبَصَرَ والعَقْلَ حتَّى يُخَيَّلَ للإنْسَان الأشْيَاءُ بخلاف ما هي عَلَيْه؛ فَيَتَغَيَّرَ حسُّهُ وعَقْلُهُ، قال في قصَّة موسى: ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف]؛ وهَذَا يَقْتَضي أنَّ أعْيُنَ النَّاس قَدْ حَصَلَ فيها تَغَيُّرٌ؛ ولهَذَا قال تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة الحجر]؛ فَقَدْ علمُوا أنَّ السِّحْرَ يغيِّرُ الإحْسَاسَ، كَمَا يُوجبُ المَرَضَ والقَتْلَ» اهـ.

وآخرُ دَعْوَانَا أن الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمين.



(10) صحيح: رواه ابن حبان، انظر: «صحيح موارد الظمآن» (1401).

الخشوع

الجزء الثاني

عبد المالك رمضاني
المدينة النبوية

أقسام الخشوع

الخشوع خشوعان: خشوع ظاهري، وخشوع باطني.

فقد روى ابن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (188/1) عن عليٍّ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [سُورَةُ المُؤْمِنُونَ]، قال: «الخشوعُ خشوعُ القلب وأن لا يلتفت يمينًا ولا شمالاً».

وقد جاء التَّنويه بهما فيما رواه مسلم (234) عَنْ عُقْبَةَ بن عَامِرٍ قَالَ: «كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الإِبِلِ فَجَاءَتْ نَوْبَتِي فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ، فَأَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَائِمًا يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَأَدْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ **«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ إِلاَّ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»**، قَالَ: فَقُلْتُ: مَا أَجْوَدَ هَذِهِ...».

والإقبال عليهما بالقلب هو الخشوع، كما جاء مبيَّنًا في «صحيح مسلم» (228) أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ»**.

قال النَّوويُّ: «وقد جمع ﷺ بهاتين اللَّفظتين أنواع الخضوع والخشوع؛ لأنَّ الخضوع في الأعضاء، والخشوع بالقلب، على ما قاله جماعة من العلماء»[1].

وفي معناه قوله ﷺ: **«خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللهُ تَعَالَى مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلاَّهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ وَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ كَانَ لَهُ عَلَى اللهِ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عَلَى اللهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ»**[2].

• • •

فالخشوع الظَّاهري في الصَّلاة يتمثَّل في:

■ ترك الحركة والكلام:

ولذلك يضاف الخشوع إلى الأصوات كما قال ﷻ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾ [سُورَةُ طه].

(1) «شرح مسلم» (121/3).
(2) رواه أبو داود (425) وهو صحيح.

روى البخاري (1199) ومسلم (538) عَن عَبْد اللهِ بن مسعود قَالَ: **كُنَّا نُسَلِّمُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي الصَّلاَةِ، فَيَرُدُّ عَلَيْنَا، فَلَمَّا رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِ النَّجَاشِيِّ سَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْنَا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! كُنَّا نُسَلِّمُ عَلَيْكَ فِي الصَّلاَةِ فَتَرُدُّ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «إِنَّ فِي الصَّلاَةِ شُغْلاً»**.

ولذلك كان من الخشوع غضُّ البصر عن النَّظر يمينًا وشمالاً

كما يُضاف إلى الأبصار؛ قال الله ﷻ: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ [القمر: 7]، ولذلك كان من الخشوع غضُّ البصر عن النَّظر يمينًا وشمالاً؛ فقد «**كَانَ ﷺ إِذَا صَلَّى طَأْطَأَ رَأْسَهُ وَرَمَى بِبَصَرِهِ نَحْوَ الأَرْضِ**»[3]، وصحَّ - أيضًا - من روايته «**أنَّه ﷺ لَمَّا دخل الكعبة ما خلَّف بصرُه موضعَ سجوده حتَّى خرج منها**»[4].

(3) رواه الحاكم (393/2) وهو صحيح.
(4) «المستدرك» للحاكم (479/1) وصححه.

■ ومن الخشوع ترك التَّلفُّت في الصَّلاة؛ فقد قال عنه أ : «اخْتلاَسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلاَةِ العَبْدِ» رواه البخاري (751).

ونقلَ ابنُ حجر في «فتح الباري» (235/2) عن الطِّيبي قولَه: «سُمِّيَ اخْتِلاَسًا تَصْوِيرًا لِقُبْحِ تِلْكَ الفَعْلَةِ بِالمُخْتَلِسِ؛ لأَنَّ المُصَلِّيَ يُقْبِلُ عَلَيْهِ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالشَّيْطَانُ مُرْتَصِدٌ لَهُ يَنْتَظِرُ فَوَاتَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَإِذَا الْتَفَتَ اغْتَنَمَ الشَّيْطَانُ الفُرْصَةَ فَسَلَبَهُ تِلْكَ الحَالَةَ».

■ ومن الخشوع ترك الحركة في الصَّلاة إلاَّ عمَّا يُصلح الصَّلاة أو تدعو الحاجةُ أو الضَّرورةُ إليه، فقد روى مسلم (580) عَنْ عَلِيِّ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ المُعَاوِيِّ أَنَّهُ قَالَ: رَآنِي عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ وَأَنَا أَعْبَثُ بِالحَصَى فِي الصَّلاَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ نَهَانِي فَقَالَ: اصْنَعْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ أ يَصْنَعُ، فَقُلْتُ: وَكَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللهِ أ يَصْنَعُ؟! قَالَ: كَانَ إِذَا جَلَسَ فِي الصَّلاَةِ وَضَعَ كَفَّهُ اليُمْنَى عَلَى فَخِذِهِ اليُمْنَى وَقَبَضَ أَصَابِعَهُ كُلَّهَا وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ الَّتِي تَلِي الإِبْهَامَ وَوَضَعَ كَفَّهُ اليُسْرَى عَلَى فَخِذِهِ اليُسْرَى»، بل حتَّى إن احتاج إلى تسوية الأرض الَّتي يسجد عليها وهو في الصَّلاة؛ فإنَّه لا يزيد على واحدة، ففي «الصَّحيحين»(5) أَنَّ رَسُولَ اللهِ أ قَالَ فِي الرَّجُلِ يُسَوِّي التُّرَابَ حَيْثُ يَسْجُدُ قَالَ: «إِنْ كُنْتَ فَاعِلاً فَوَاحِدَةً».

(5) البخاري (1207)، ومسلم (546).

قال النَّووي في «شرح مسلم» (37/5): «واتَّفق العلماء على كراهة المسح؛ لأنَّه ينافي التَّواضع، ولأنَّه يشغل المصلِّي».

روى ابن نصر في «تعظيم قدر الصَّلاة» (138) عن مجاهد: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البَقَرَة]، قال: فمن القنوت الرُّكود والخشوع وغضُّ البصر وخفض الجناح من رهبة الله Y ، كان إذا قام أحدهم يصلِّي يهاب الرَّحمن أن يشدَّ بصره إلى شيء أو يلتفت أو يقلب الحصى أو يعبث بشيء أو يحدِّث نفسه من شأن الدُّنيا إلاَّ ناسيًا ما دام في صلاته»، مع ذلكَ رغَّب النَّبيُّ أ في تَرك المَسح إعظامًا لحُرمة الصَّلاة، فقال: «لأَنْ يُمسكَ أَحدُكُم يَدَهُ عَنِ الحَصَى فِي الصَّلاةِ خَيرٌ لهُ مِن مِئَة نَاقَة كُلُّها سُودُ الحَدَقِ، فإِنْ غَلَبَ أَحَدَكُمُ الشَّيطانُ فَلْيَمْسَحْ مَسْحَةً واحِدَةً»(6).

■ ومن الخشوع: طمأنينة أعضاء المصلِّي في صلاته، فقد روى مسلم (771) عَنْ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ أ أَنَّهُ إِذَا رَكَعَ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي».

قال ابن تيمية كما في «المجموع» (555/22): «فوصف نفسه بالخشوع في حال الرُّكوع؛ لأنَّ الرَّاكع ساكن متواضع».

(6) رواه أحمد (328/3، 384) وصحَّحه الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحة» (3062).

وأقلُّ ما تحصل به طمأنينة الأعضاء أن يسكن جسم المصلِّي عند كلِّ انتقال من حال إلى حال؛ كما روى ابن ماجه (863) عن عبَّاس بن سهل السَّاعدي قال: «اجتمع أبو حميد وأبو أسيد السَّاعدي وسهل بن سعد ومحمَّد ابن مسلمة؛ فذكروا صلاة رسول الله أ فقال أبو حميد: أنا أعلمكم بصلاة رسول الله أ ، إنَّ رسول الله أ قام فكبَّر ورفع يديه، ثمَّ رفع حين كبَّر للرُّكوع، ثمَّ قام، فرفع يديه واستوى حتَّى رجع كلُّ عظم إلى موضعه».

قال هشام بن عروة: قال لي ابن المنكدر: «لو رأيت ابن الزُّبير وهو يصلِّي لقلت غصن شجرة يصفقها الرِّيح إنَّ المنجنيق ليقع ههنا وههنا ما يبالي»(7).

> **وأقلُّ ما تحصل به طمأنينة الأعضاء أن يسكن جسم المصلِّي عند كلِّ انتقال من حال إلى حال**

وقال مجاهد: «كان عبد الله ابن الزُّبير إذا قام في الصَّلاة كأنَّه عودٌ وكان يقال: ذاك من الخشوع في الصَّلاة»(8).

وفي «السِّير» (404/5) عن أبي الأَحْوَصِ قَالَ: «قَالَتْ بِنْتٌ لِجَارِ مَنْصُورِ ابنِ المُعْتَمِرِ: يَا أَبَةِ! أَيْنَ الخَشَبَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي سَطحِ مَنْصُورٍ قَائِمَةً؟ قَالَ: يَا بُنَيَّةُ! ذَاكَ مَنْصُورٌ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ».

وقال أَبُو بَكْرِ بنُ عَيَّاشٍ: «رَأَيْتُ مَنْصُورًا إِذَا قَامَ فِي الصَّلاَةِ، عَقَدَ لِحْيَتَهُ فِي صَدْرِهِ».

■ ■ ■

(7) «الزُّهد» لأحمد بن حنبل (ص187)

(8) «السنن الكبرى» للبيهقي (280/2)

والخشوع الباطني: يتمثّل في:

استحضار المصلّي قلبه في أثناء صلاته؛ ليتدبَّر ما يقرأ ويقول، وهذا يزيدُ القرآنَ زينةً في آذان سامعيه ويُعطي قارئَه خشيةً وحُسنَ تفكُّر.

فعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا بِالقُرْآنِ الَّذِي إِذَا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأُ حَسِبْتُمُوهُ يَخْشَى اللهَ»[9].

وعن عبد الله بن الشّخّير قال: «رأيت رسول الله ﷺ يصلّي وفي صدره أزيز كأزيز الرَّحَى من البكاء ﷺ»[10].

■ وممَّا يدلُّ على الخُشوع في أثناء القراءة تتبُّع مَعاني الآيات والتَّفاعلُ معَها؛ فعن حذيفة قال: «صلَّيت مع النَّبيِّ ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت يركع عند المائة، ثمَّ مضى فقلت يصلِّي بها في ركعة، فمضى فقلت يركع بها، ثمَّ افتتح النِّساء فقرأها، ثمَّ افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً؛ إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوُّذ تعوَّذ...» الحديث[11].

■ وفي سيرة سلفنا الصَّالح عَجائبُ حالاتِ الخُشوع، منه ما ذكرَ في «مجموع الفتاوى» (605/22): «قال سعد بن معاذ ﷺ: في ثلاث خصال، لو كنت في سائر أحوالي أكون فيهنَّ كنت أنا أنا؛ إذا كنت في الصَّلاة لا أحدِّث نفسي بغير ما أنا فيه؛ وإذا سمعت من رسول ﷺ حديثًا لا يقع في قلبي ريبٌ أنَّه الحقُّ، وإذا كنت في جنازة لم أحدِّث نفسي بغير ما تقول، ويقال لها.

وكان مسلمة بن بشار يصلِّي في المسجد، فانهدم طائفة منه وقام النَّاس، وهو في الصَّلاة لم يشعر.

وكانُوا يرَون أنَّ القُصورَ عن تَحقيقِ الخُشوعِ الظَّاهريِّ دَليلُ فَسادِ الباطنِ

وكان عبد الله بن الزُّبير ﷺ يسجد، فأتى المنجنيق فأخذ طائفة من ثوبه وهو في الصَّلاة لا يرفع رأسه.

وقالوا لعامر بن عبد القيس: أتحدِّث نفسك بشيء في الصَّلاة؟ فقال: أو شيء أحبُّ إليَّ من الصَّلاة أحدِّث به نفسي؟ قالوا: إنَّا لنحدِّث أنفسنا في الصَّلاة، فقال: أبالجنَّة والحور ونحو ذلك؟ فقالوا: لا! ولكن بأهلينا وأموالنا، فقال: لأن تختلف الأسنة فيَّ أحبّ إليَّ، وأمثال هذا متعدِّد».

رأى سعيد بن المسيِّب رجلاً وهو يعبث بلحيته في الصَّلاة! فقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه

وقال رجل من قيس يُكنَّى أبا عبد الله: بتنا ذات ليلة عند الحسن فقام من اللَّيل فصلَّى فلم يزل يردِّد هذه الآية حتَّى السَّحر: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: 18]، فلمَّا أصبح قلنا: يا أبا سعيد! لم تكد تجاوز هذه الآية سائر اللَّيل، قال: أرى فيها معتبرًا، ما أرفع طرفًا ولا أردُّه إلاَّ وقد وقع على نعمة وما لا يُعلم من نعم الله أكثر»[12].

وكان هارون بن رباب الأسيدي يقوم من اللَّيل للتَّهجُّد فربَّما ردَّد هذه الآية حتَّى يُصبح: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾ [سُورَةُ الأَنْعَامِ] ويبكي حتَّى يُصبح».

■ وهذان النَّوعان من الخشوع متلازمان، ولذلكَ كانَ السَّلفُ يَجمَعون بين صلاَح الظَّاهرِ والباطنِ كما يَجمَعون بين العِلم والعمل، روَى ابن سمعون في «أماليه» (345) أنَّ أحمد بن حنبل قال: «ما رأيت رجلاً مثل وكيع في العلم والحفظ والحلم والأبواب مع خشوع وورع».

وكانُوا يرَون أنَّ القُصورَ عن تَحقيقِ الخُشوع الظَّاهريِّ دَليلُ فَسادِ الباطنِ؛ روى عبد الرزاق (3309) وابن أبي شيبة (190/2): «رأى سعيد بن المسيِّب رجلاً وهو يعبث بلحيته في الصَّلاة! فقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»، لذلك كانوا يخافون من تصنُّع الخشوع الظَّاهري والقلب بعيد الحضور؛ لأنَّ المُخالفةَ بينهما نوعُ نِفاقٍ، روى أحمد في «الزُّهد» (ص142) عن أبي الدَّرداء، قال: «استعيذوا بالله من خشوع النِّفاق، قيل له: وما خشوع النِّفاق؟ قال: أن يُرى الجسد خاشعًا والقلبُ ليس بخاشع».

ونقل ابن القيِّم في «مدارج السَّالكين» (521/1): «قال الفضيل بن عياض: كان يكره أن يرى الرَّجل من الخشوع أكثر ممَّا في قلبه»، وفيه: «ورأى بعضهم

(9) رواه ابن ماجه (1339) وصحَّحه الألباني.
(10) رواه أبو داود (904) وصحَّحه الألبانيُّ.
(11) «صحيح مسلم» (772).
(12) «التِّذكار» للقرطبي (ص125).

رجلًا خاشع المنكبين والبدن، فقال: يا فلان! الخشوع ههنا وأشار إلى صدره، لا ههنا وأشار إلى منكبيه».

• • •

أسباب الخشوع

قال ابن تيمية في «المجموع» (22/605): «والذي يعين على ذلك شيئان: قوَّة المقتضي، وضعف الشَّاغل.

أمَّا الأوَّل: فاجتهاد العبد في أن يعقل ما يقوله ويفعله، ويتدبَّر القراءة والذِّكر والدُّعاء، ويستحضر أنَّه مناج لله تعالى، كأنَّه يراه، فإنَّ المصلِّي إذا كان قائمًا فإنَّما يناجي ربَّه، والإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك، ثمَّ كلَّما ذاق العبد حلاوة الصَّلاة كان انجذابه إليها أوكد، وهذا يكون بحسب قوَّة الإيمان».

فقوة المقتضي في الإتيان بأشياء؛ منها:

■ **تدبُّر القرآن وتتبُّع معاني الأذكار:**

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة الإسراء]، فوصفهم بالعلم أوَّلًا ثمَّ بالخشوع آخرًا؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ خشوعهم كان نتيجة لعلمهم بمعاني الكتاب الكريم.

قال محمود شاكر في مقدِّمة «تفسير الطَّبري» (1/ 10): «قال الطبري: «إنِّي لأعجب ممَّن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذُّ بقراءته؟!».

■ **ذكرُ الموت عند كلِّ صلاة؛** لقول رسول الله ﷺ: «**اذْكُرِ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِكَ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنَّهُ يُصَلِّي صَلَاةً غَيْرَهَا، وَإِيَّاكَ وَكُلَّ أَمْرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ**»[13].

■ **التفل عن اليسار مع التعوُّذ بالله من الشَّيطان:**

يأتي الشَّيطانُ الإنسانَ ليصرفه عن صلاته حتَّى إنَّه ربَّما حال بينه وبين قراءته فلا يقدرُ المصلِّي على القراءة، ولعلَّه أشدُّ شيءٍ على خشوع المرء، فإذا أحسَّ بذلك فليتعوَّذ بالله من الشَّيطان الرجيم وليتفل عن يساره.

ودليله ما رواه مسلم (2203): أنَّ عثمان بن أبي العاص أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله! إنَّ الشَّيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها عليَّ؟! فقال رسول الله ﷺ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ، يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ وَاتْفُلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا، فَقَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي**».

قال النَّوويُّ في «شرح مسلم» (14/190): «ومعنى يلبسها أي يخلطها ويُشكِّكني فيها، وهو بفتح أوَّله وكسر ثالثه، ومعنى «حال بيني وبينها»؛ أي نكدني فيها ومنعني لذَّتها والفراغ للخشوع فيها».

وقال ملَّا علي القاري في «مرقاة المفاتيح»: «أي يمنعني من الدُّخول في الصَّلاة أو من الشُّروع في القراءة».

■ ■ ■

وأمَّا ضعفُ الشَّاغل:

فبتجنُّب كلِّ ما من شأنه أن يشغل القلب عن التَّفكُّر فيما هو فيه من الإقبال على الله؛ روى أبو داود وأحمد (16637) بسند صحيح قال ﷺ: «**لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي الْبَيْتِ شَيْءٌ يُشْغِلُ الْمُصَلِّي**»، قاله رسولُ الله ﷺ يومَ دخل الكعبة فرأى قرني كبش فيها فأمر بتغطيتهما حتَّى لا يشغلا المُصلِّي.

قال الشَّوكاني في «نيل الأوطار» (2/173): «والحديثُ يدلُّ على كراهة تزيين المحاريب وغيرها ممَّا يستقبله المصلِّي بنقش أو تصوير أو غيرهما ممَّا يلهي».

وروى البخاري (373) ومسلم (556) ومالك (220) أنَّ النَّبيَّ ﷺ في خميصة لها أعلام فنظر إلى أعلامها نظرةً فلمَّا انصرف قال: «**اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هَذِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَائْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ أَبِي جَهْمٍ فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي آنِفًا عَنْ صَلَاتِي**» (وفي رواية: «**فَإِنِّي نَظَرْتُ إِلَى عَلَمِهَا فِي الصَّلَاةِ فَكَادَ يَفْتِنُنِي**».

قال ابن بطَّال في «شرح البخاري» (2/36): «إنَّما ردَّ رسول الله الخميصة إلى أبي جهم؛ لأنَّها كانت سبب غفلته وشغله عن ذكر الله».

(13) حسَّنه الشَّيخُ الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (3/408)، وقال: أخرجه الدَّيلمي في «مسند الفردوس» (1/ 1/ 51 - مختصره).

تزكية وآداب

وروى البخاري (374) عن أنس: كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**أَمِيطِي عَنَّا قِرَامَكِ هَذَا؛ فَإِنَّهُ لاَ تَزَالُ تَصَاوِيرُهُ تَعْرِضُ فِي صَلاَتِي**».

قالَ ابن بطَّال ـ أيضًا ـ (180/9): «فيه من الفقه: أنَّه ينبغي التزام الخشوع وتفريغ البال لله تعالى، وترك التَّعرُّض لكلِّ ما يشغل المصلِّي عن الخشوع، ألا ترى أنَّ رسول الله نبَّه على هذا المعنى بقوله: «**فَإِنَّهُ لاَ تَزَالُ تَصَاوِيره تَعرِضُ لِي فِي صَلاَتِي**».

■ **تركُ الصَّلاةِ في وَضعٍ يشوِّش الفكر:**

ـ كشدَّة الحرِّ؛ فقد كانَ من سنَّة النَّبيِّ ﷺ الإبرادُ بالصَّلاة في شدَّة الحرِّ.

ـ وكالصَّلاة بحَضْرة الطَّعام وعند مُدافعة الأخبثين البَول أو الغائط: روى مسلم (560) عن عَائشَةَ رضي الله عنها قَالَت: إنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**لاَ صَلاَةَ بحَضْرَةِ الطَّعَامِ وَلاَ وَهُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ**»، قالَ القرطبيُّ في «المفهم» (96/5): «لا تشويش أعظم من تشويش الجائع في حضرة الطَّعام، وإلى الابتداء بالطَّعام على الصَّلاة ذهب الشَّافعيُّ وابن حبيب من أصحابنا والثَّوري وأحمد وإسحاق وأهل الظَّاهر، ورُوي ذلك عن عمر وابن عمر وأبي الدَّرداء».

ـ وكجهر بعض المصلِّين بالقراءة على بعض:

عَن البَيَاضِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ عَلَى النَّاسِ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَقَدْ عَلَتْ أَصْوَاتُهُمْ بالقِرَاءَةِ فَقَالَ: «**إِنَّ المُصَلِّي يُنَاجِي رَبَّهُ فَلْيَنْظُرْ بِمَا يُنَاجِيهِ بِهِ وَلاَ يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بالقُرآنِ**»[14].

قال ابن عبد البرِّ في «الاستذكار» (435/1): «وفي معناه أنَّه لا يحبُّ لكلِّ مصلٍّ يقضي فرضه وإلى جنبه من يعمل مثل عمله أن يفرط في الجهر؛ لئلاَّ يخلط عليه كما لا يحبُّ ذلك لمتنفِّل إلى جنب متنفِّل مثله، وإذا كان هذا هكذا؛ فحرام على النَّاس أن يتحدَّثوا في المسجد بما يشغل المصلِّي عن صلاته ويخلط عليه قراءته، وواجب لازم على كلِّ من يطاع أن ينهى عن ذلك؛ لأنَّ ذلك إذا لم يجز للمصلِّي التَّالي للقرآن؛ فأين الحديث بأحاديث النَّاس من ذلك»، ومثلُه ـ أيضًا ـ في قراءة المَأموم خَلفَ الإمام.

(14) حسَّنَه الشَّيخُ الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (408/3)، وقال: أخرجه الدَّيلمي في «مسند الفردوس» (1/1/51 ـ مختصره).

ـ الصَّلاة خلف المتحدِّثين: عن ابن عبَّاس: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لاَ تُصَلُّوا خَلْفَ النَّائِم وَلاَ المُتَحَدِّث**»[15].

قالَ الخطَّابيُّ في «معالم السُّنن» (186/1): «وأمَّا الصَّلاة إلى المتحدِّثين فقد كرهها الشَّافعيُّ وأحمد، وذلك من أجل أنَّ كلامهم يشغل المصلِّي عن صلاته، وكان ابن عمر لا يصلِّي خلف رجل يتكلَّم إلاَّ يوم الجمعة»، وقالَ ابن رجب في «فتح الباري» (692/2): «وعلَّل أحمد الكراهة بأنَّ المتحدِّث يشغل المصلِّي إليه»، وبه علَّلَ النَّهيَ العينيُّ في «شرح سنن أبي داود» (254/3).



(15) رواه مالك (264) وصحَّحَه الألبانيُّ في «أصل صفة صلاة النَّبيِّ ﷺ» (370/1).





فتاوى شرعية

أ. د. محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

في حكم الخدمات المصرفية مقابل الاقتراض

السُّؤال:

هل يجوز لمقترضٍ من بنك أن يعتبر ما يدفعه من نسبة ضئيلة مقابل القرض مجرَّدَ رسومٍ وتكاليف تستلزم هذه المعاملةُ وجودَها؟

الجواب:

مضمونُ السُّؤال يندرج في صورة «أَنْظِرْنِي أَزِدْكَ»، وهي إحدى صورتَيْ ربا الدُّيون الَّتي اتَّفق العلماء على تحريمها، وهي معدودةٌ من الكبائر.

قال النَّوويُّ : «أجمع المسلمون على تحريم الرِّبا، وعلى أنَّه من الكبائر، وقيل: إنَّه كان محرَّمًا في جميع الشَّرائع، وممَّن حكاه الماوردي»[1]، ومستندُ الإجماع آياتٌ كثيرةٌ نهى الله تعالى فيها المؤمنَ عن أكل الرِّبا وأَمَرَهُ بالتَّقوى، وهدَّد الَّذين لا يستجيبون لنهيه بالمحاربة والوعيد، منها: قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة]، وقولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران]، وقولُه تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾ [البقرة].

وقد أمر النَّبيُّ ﷺ باجتناب الرِّبا وعدَّه أحد الموبقات السَّبع[2] الَّتي تُهلك صاحبَها في الدُّنيا والآخرة، كما «لَعَنَ رسول الله ﷺ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ، وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ»[3].

ولا فرقَ في التَّحريم في شريعة الإسلام في حجْمِ الزِّيادة المشروطة في عقد القرض مِنْ حيث كثرتُها وقلَّتُها

هذا؛ ولا فرقَ في التَّحريم في شريعة الإسلام في حجْم الزِّيادة المشروطة في عقد القرض مِنْ حيث كثرتُها وقلَّتُها، ولا فرقَ بين الزِّيادة في القدر أو في الصِّفة، ويستوي النَّاس في التَّحريم سواء اتَّحدت دياناتُهم وديارُهم أو اختلفت، فهو - إذنْ - تحريمٌ كلِّيٌّ شاملٌ لكلِّ أنواعه.

(1) «المجموع» للنووي: (9/ 391).

(2) أخرجه البخاري (2766)، ومسلم (89)، من حديث أبي هريرة ﵁.

(3) أخرجه مسلم (1598)، من حديث جابر بن عبد الله ﵄.

قال ابن قدامة :

«وكلُّ قَرْضٍ شَرَطَ فيه أن يزيدَه فهو حرامٌ بغير خلاف، قال ابنُ المنذر: «أجمعُوا على أنَّ المُسْلِفَ إذا شَرَطَ على المُسْتَسْلِف زيادةً أو هديَّةً فأَسْلَفَ على ذلك: أنَّ أَخْذَ الزِّيادة على ذلك ربًا»، وقد رُوِيَ عن أُبَيِّ بن كعب وابنِ عبَّاس وابنِ مسعود أنَّهم نَهَوْا عن قرض جرَّ منفعةً، ولأنَّه عقدُ إرفاقٍ وقربة؛ فإذا شَرَطَ فيه الزِّيادةَ أخرجه عن موضوعه، ولا فرقَ بين الزِّيادة في القدر أو في الصِّفة»[4].

وقال النَّووي :

«يستوي في تحريم الرِّبا الرَّجلُ والمرأةُ والعبدُ والمكاتبُ بالإجماع، ولا فرقَ في تحريمه بين دار الإسلام ودار الحرب، فما كان حرامًا في دار الإسلام كان حرامًا في دار الحرب، سواء جرى بين مسلمَيْن أو مسلم وحربيٍّ، سواء دخلها المسلم بأمانٍ أم بغيره، هذا مذهبنا، وبه قال مالكٌ وأحمدُ وأبو يوسفَ والجمهورُ»[5].

■ ■ ■

والمعلومُ أنَّ الدِّعَايَةَ اليهوديَّةَ الَّتي أضلَّت بها النَّصارى الَّذين كانوا يحرِّمون الرِّبا من شبهتين تلقَّفهما بعضُ بني جلدتنا ووقعوا فيهما وهما:

الأولى: التَّفريقُ بين الرِّبا والفائدة، فالرِّبا المحرَّمُ ـ عندهم ـ هو ما كانت الزِّيادةُ فاحشةً على الرَّأسمال المقترَض.

وأمَّا الفائدةُ الجائزةُ؛ فهي الزِّيادةُ المعتدلةُ الَّتي جَرَتْ تسميتُها في عرف البنوك بمعدَّل الفائدة أو النِّسبة المئويَّة أو سعر الفائدة.

وبهذا التَّفريق أجازوا الفائدةَ الرِّبويَّة وأناطوا التَّحريمَ بالكثرة دون القلَّة المعتدلَة واعتبروها فائدةً جائزةً.

الثَّانية: التَّفريقُ بين القروض الإنتاجيَّة والاستهلاكيَّة، فإذا وردَت الزِّيادةُ على القروض الاستهلاكيَّة المأخوذةِ مِنْ قِبَلِ المستقرِضِ لحاجته المعيشيَّة أو لمآربه الشَّخصيَّة فهي من الرِّبا المحرَّم.

وأمَّا الزِّيادةُ المشترَطةُ على القروض الإنتاجيَّة فليستْ ـ عندهم ـ من الرِّبا المحرَّم، وإنَّما هي فائدةُ عدلٍ مباحةٌ، معلِّلينَ ذلك بأنَّ المستقْرِضَ المُنْتِجَ يستخدم أموالَ المُقْرِضِ في مشاريعه العمرانيَّة والتِّجاريَّة والإنمائيَّة، فمِنَ الإنصاف والعدلِ استفادةُ المُقْرِضِ ممَّا عمل به المستقْرِضُ، وليس من الرِّبا المحرَّم.



ولا يخفى ضعفُ ما تقدَّم معلَّلاً بالتَّفريق في الشُّبهتين وفسادُ اعتباره؛ لمقابلته عمومَ النُّصوص الشَّرعيَّة والإجماعَ المنعقدَ على تحريمه من غير تفريق كما سبق بيانُه.

ولأنَّ الشَّرعَ اعتبره ظلمًا مِنْ أكلِ أموالِ النَّاسِ بالباطل مهما اختلفت صفتُه ومقدارُه.

ويدلُّ عليه عمومُ قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ٢٧٩﴾ [البقرة: 279]، وقولُه تعالى ـ في شأن اليهود ـ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ١٦٠﴾ [النساء]، ولقوله أ فيما يرويه عن ربِّه: «**يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا**»[6]، واشتراطُ الزِّيادة مهما قلَّت يُنافي موضوعَ عقدِ القرض الَّذي هو الإرفاقُ والقربة.



هذا؛ وتسميةُ الفائدة الرِّبويَّة النَّاجمة عن الاقتراض باسم رسوم مفروضة أو تكاليفَ بنكيَّة أو خدماتٍ مصرفيَّة مقابلَ الاقتراض فلا تغيِّر من أصل المعاملة الرِّبويَّة في شيء؛ لأن

وتسميةُ الفائدة الرِّبويَّة النَّاجمة عن الاقتراض باسم رسوم مفروضة أو تكاليفَ بنكيَّة أو خدماتٍ مصرفيَّة مقابل الاقتراض فلا تغيِّر من أصل المعاملة الرِّبويَّة من شيء؛ لأن العبرةَ بالحقيقة والمسمَّى لا بالألفاظ والتَّسمية، فكلُّ إقراض نظيرَ فائدةٍ يُعَدُّ معاملةً ربويَّة محرَّمةً

(4) «المغني» لابن قدامة: (4/354).
(5) «المجموع» للنووي: (9/391).
(6) جزء من حديث: أخرجه مسلم (2577)، وأحمد (5/160)، من حديث أبي ذر Ç .

العـبرةَ بالحقيقة والمسمَّـى لا بالألفاظِ والتَّسمية، فـكلُّ إقراضٍ نظيرَ فائـدةٍ يُعَدُّ معاملةً ربويَّةً محرَّمةً، لا يـزول إثمُ تحريمه إلاَّ إذا اقترنـت بها ضرورةٌ ملحَّـةٌ مستجْمِعَةُ الضَّوابـطِ، فإنَّ الإثمَ يرتفع مِنْ جانبِ المضطَرِّ فقط، وهو متروكٌ لدينه في تقديرها.

وإذا كان حكـمُ المعامَلة مع البنـوك بالقروض الرّبويَّة لا يجوز شرعًـا؛ فـإنَّ مِنْ أعمـالِ البنوك الأخـرى كالسّفتجـاتِ الدَّاخليَّةِ وخطابـاتِ الاعتمـادِ وصـرفِ مبالـغِ الشِّيـكاتِ ونحـوِ ذلـك من الخدمـاتِ المقدَّمة، فالظَّاهرُ جوازُهـا ـ وخاصَّةً للمحتاج ـ، بشرط تحديدِ قيمةِ الخدمةِ بسعرٍ معتدلٍ لا بالنِّسبة المئويَّة؛ لئلاَّ تزيدَ عن القيمة المطابِقَةِ لحقيقة ما يقدِّمه المصرف من خدماتٍ أوَّلاً.

وأن لا يرضـى ـ ثانيًـا ـ بمعامـلاتِ البنـوك الرّبويَّة عن طريق أنـواعِ الإقراضِ نظيرَ فائدةٍ مشترَطةٍ صراحـةً أو مقنَّعةٍ بالبيع أو الاستثمارِ، تفاديًا للاشتراك في الإثم والمعصية؛ لقوله ﷺ: «إِذَا عُمِلَتِ الخَطِيئَةُ فِي الأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا ـ وقال مـرّةً: أَنْكَرَهَا ـ كَانَ كَمَنْ غَـابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا»(7).



(7) أخرجه أبو داود (4/ 515) من حديث العرس بن عميرة الكندي ﭬ، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» (689).



مفهوم الستر من حجاب المرأة المسلمة

السُّؤال:

يقـول بعض مـن تصـدَّر لإرشـاد النَّاس في هـذه الأيَّام: إنَّ مفهـوم الحجاب راجعٌ إلى العُرف، والمقصود منه تحقيق السِّـتر، وعلى هـذا؛ فإنَّ الجلبـاب أو الثَّوب الَّـذي يستوعب جميـعَ البدن ليس نموذج الحجـاب الواجب في هذا الزَّمان، وإنَّما فَرَضه عُرف الصَّحابة، ولسنا مُلْزَمين باتِّباع أعرافهم، فلـو لَبِسَـت المرأة تَنُّورَةً وقميصًـا أو فستانًا أو غير ذلك ممَّا يُعَدُّ ساترًا؛ فإنَّها تكون مرتديةً للحجاب الَّذي أوجبه الله. فما مدى صِحَّة هذا الكلام؟

الجواب:

قـد اعتمد صاحب هـذه المقالة في تأسيـس مفهوم الحجاب على السِّتر المطلق وربَطه بعرف الصَّحابة ﭫ.

وهذه النَّظرة التَّأسيسيَّة لا تنتهض للاستدلال من جهتين:

الأولى: أنَّ المفهـوم الشَّرعيَّ للسِّـتر المتوخَّى من وراء فرض الحجـاب إنَّما هو السِّـتر المقيَّد بجملة من الشُّـروط اللاَّزمة له مستوحـاةً مـن نصوص الكتـاب والسُّنَّة حتى تُضْفِـيَ على لباس المرأة المسلمة الصِّفةَ الشَّرعيَّة المطلوبةَ.

● فمـن الشُّـروط الشَّرعيَّـة الَّتي ينبغـي مراعاتُها في لباس المرأة ما يأتي:

ـ أن يستوعبَ اللِّباسُ جميعَ ما هو عورة من بدنها فتسترُه عن الأجانب.

ولذلـك سُمِّـي حجابًـا؛ لأنَّـه يحجـب شخصـه أو عينه عن الأجانب(8).

وأمَّا محارمها فلا تكشف المرأة لهم سوى مواضعِ الزِّينة.

(8) «التعريفات الفقهية» للبركتي: (76).

والاستيعابُ يشمَل:

. الخمـارَ الَّذي تغطِّي بـه رأسَها وعُنُقَهـا وأُذُنيها وصدرَها سَـدْلاً وإرخاءً ولَيًّا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: 31].

. الجلبـابَ أو الـرِّداءَ أو المِلحفةَ وهو المُـلاءة الَّتي تشتمل بها المرأة فتلبَسُها فوقَ خمارِها ودرعها أو قميصها لتغطِّيَ بها جميعَ مـا هو عورةٌ من بدنها مـن رأسها إلى قدميها، ويـدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٥٩﴾ [الأحزاب].

وتفريعًـا عليه فإنَّ المقدار الشَّرعيَّ لطول ثـوب المرأة يُراعى فيه حـالان: حالُ استحبـابٍ وهو يزيد على الكعبـين بقدر شِبرٍ، وحالُ جوازٍ بقدر ذراعٍ[9].

ويدلُّ عليه حديث أمِّ سلمة á أنَّها قالت لرسول الله ﷺ حين ذكر الإزار: «فالمرأةُ يا رسول الله؟!»، قال: «**تُرْخِي شِبْرًا**»، فقالت أمُّ سلمة: «إذن ينكشف عنها؟!»، قال: «**فَذِرَاعًا لاَ تَزِيدُ عَلَيْهِ**»[10].

. أن يكونَ اللِّباسُ واسعًا فضفاضًا لئلاَّ يَصِفَ شيئًا من بدنها.

ذلـك لأنَّ اللِّباسَ الضَّيِّـقَ المحجِّمَ لا يحقِّـق السَّتر المطلوب شرعًـا، فهو يُحـدِّد تفاصيل الجسم ويُـبرزه للنَّاظرين، وقد ورد النَّهـيُّ الشَّرعـيُّ عـن اللِّباس الضَّيِّـق في حديث أسامـةَ بن زيد Ç، قـال: «كسـاني رسول الله ﷺ قُبطيـةً كثيفةً كانت ممَّا أَهْدَى له دحيةُ الكلبـي، فكسوتها امرأتي، فقال رسول الله ﷺ: «**مَـا لَـكَ لاَ تَلْبَسُ القُبْطِيَّـةَ؟**» فقلـت: «يـا رسـولَ الله! كسوتُها امرأتـي»، فقال: «**مُرْهَا فَلْتَجْعَـلْ تَحْتَهَا غلاَلَـةً**[11]**، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا**»[12]، والمعلوم أنَّ الثَّوب ولو كان كثيفًا فلا تمنع كثافتُه من وصف حجم الجسد أو أعضائه ما دام ضَيِّقًا.

. أن يكونَ اللِّباس كثيفًا غيرَ شفَّافٍ لئلاَّ يصِفَ لونَ بَشرة المرأة.

فقـد ورد النَّهـيُّ عنه في حديث أبي هريـرة Ç مرفوعًا: «**صِنْفَـانِ مِـنْ أَهْـلِ النَّـارِ لَمْ أَرَهُمَـا: قَوْمٌ مَعَهُـمْ سِيَـاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَـرِ يَضْرِبُـونَ بِهَـا النَّـاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَـاتٌ عَارِيَـاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِـلاَتٌ رُؤُوسُهُـنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المَائِلَـةِ، لاَ يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا**»[13].

ففـي الحديث دلالـة ظاهرةٌ على تحريم لُبْسِ الثوب الرَّقيق الَّذي يَشِفُّ ويَصِفُ لونَ بدن المرأة.

قـال ابن عبد البرِّ ؒ: «أراد (النِّسـاءَ) اللَّواتي يَلْبَسْنَ من الثِّيـاب الشَّيءِ الخفيـفَ الَّذي يصِـفُ ولا يستر، فهـنَّ كاسياتٌ بالاسم عارياتٌ في الحقيقة»[14].

وقـال ابن تيمية ؒ: «وقـد فُسِّرَ قولـه: «**كَاسِيَـاتٌ عَارِيَاتٌ**» بـأن تكتسيَ ما لا يسترها، فهي كاسية وهـي في الحقيقة عارية، مثـل مَنْ تكتسي الثَّـوبَ الرَّقيقَ الَّـذي يصفُ بَشَرَتَهـا، أو الثَّوبَ الضَّيِّقَ الَّذي يبـدي تقاطيعَ خَلْقِها مثلَ عَجِيزَتِها وساعدِها ونحو ذلـك، وإنَّما كسوة المرأة ما يسترهـا فلا يبدي جسمها ولا حجم أعضائها لكونه كثيفًا واسعًا»[15].

. وأن لا يكونَ لباسُ المرأة لباسَ شهرة سواء بالنَّفيس أو الخسيس.

لقولـه ﷺ: «**مَـنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْـرَةٍ أَلْبَسَهُ اللهُ يَـوْمَ القِيَامَةِ ثَوْبًا مِثْلَهُ، ثُمَّ تَلَهَّبُ فِيهِ النَّارُ**»[16].

قـال ابن تيمية ؒ: «وتُكْرَهُ الشُّهرةُ من الثِّياب، وهو المترفِّعُ الخـارج عن العادة والمتخفِّضُ الخارج عن العادة، فـإنَّ السَّلفَ كانـوا يكرهـون الشُّهرتـين: المترفِّـعَ والمتخفِّـضَ، وفي الحديث: «**مَـنْ لَبِـسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللهُ ثَـوْبَ مَذَلَّةٍ**»[17]، وخيارُ الأمور أوساطها»[18].

(9) «فتح الباري» لابن حجر: (10/259).

(10) أخرجه أبو داود (4117)، والنسائي (5339)، وابن ماجه (3580)، وأحمد (6/ 293)، من حديث أم سلمة á، والحديث صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»: (1/ 227).

(11) الغلالة: شعار يلبس تحت الثَّوب وتحت الدِّرع أيضًا. [«مختار الصحاح» للرازي: (479)].

(12) أخرجه أحمد (5/205)، والبيهقي في «السنن الكبرى»: (2/ 234)، من حديث أسامة بن زيد Ç. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (5/ 240): «فيه عبد الله بن محمد بن عقيل وحديثه حسن وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات»، وحسّنه الألباني في «جلباب المرأة المسلمة» (131).

(13) أخرجه مسلم (2128)، وأحمد (2/ 355)، من حديث أبي هريرة Ç.

(14) «التَّمهيد» لابن عبد البر: (13/204).

(15) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية: (22/146).

(16) أخرجه أبو داود (4029)، من حديث ابن عمر È.

(17) أخرجه أبو داود (4030)، وابن ماجه (3606)، وأحمد (2/92)، والحديث حسَّنه الألباني في «جلباب المرأة المسلمة»: (213).

(18) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية: (22/138).

.ومن هذا القبيل ـ أيضًا ـ ألاَّ يكونَ لباسُ المرأة زينةً تَلْفِتُ الأنظارَ وتَجْلِبُ الانتباهَ.

سواء في هيئة لباسها أو الألوانِ الفاتحة أو البرَّاقة اللاَّمعة، أو المادَّة المصنوعِ منها، أو النُّقوشِ والوشيِ الَّتي عليه، تفاديًا أن تكونَ من المتبرِّجات بزينة.

قال الألوسي : : «ثمَّ اعلمْ أنَّ عندي ممَّا يُلْحَقُ بالزِّينة المنهيِّ عن إبدائها ما يلبَسه أكثرُ مُتْرَفَاتِ النِّساء في زماننا فوق ثيابهنَّ ويتستَّرن به إذا خرجن من بيوتهنَّ، وهو غطاء منسوج من حرير ذي عدَّةِ ألوانٍ، وفيه من النُّقوش الذَّهبيَّة أو الفضِّيَّة ما يَبْهَرُ العيونَ، وأرى أنَّ تمكينَ أزواجهنَّ ونحوهم لهنَّ من الخروج بذلك ومَشْيِهنَّ به بين الأجانب من قِلَّة الغيرة، وقد عمَّت البلوى بذلك»[19].

.أن لا يكون اللِّباس شبيهًا بلباس الرَّجل.

فقد «**لَعَنَ رَسُولُ الله** أ **المُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ وَالمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ**»[20]، كما «**لَعَنَ رَسُولُ الله** أ **الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ المَرْأَةِ وَالمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ**»[21]، و«**لَعَنَ رَسُولُ الله** أ **الرَّجُلَةَ مِنَ النِّسَاءِ**»[22].

والمقصودُ بالتَّشبُّه المنهيِّ عنه بين الرِّجال والنِّساء التَّشبُّهُ في اللِّباس والزِّينة والكلامِ والمشي، وهو حرامٌ للقاصد المختار قولاً واحدًا.

قال ابن حجر : : «وتشبُّهُ النِّساءِ بالرِّجال والرِّجالِ بالنِّساء مِنْ قاصدٍ مختارٍ حرامٌ اتِّفاقًا»[23].

.أن لا يكونَ اللِّباسُ شبيهًا بلباس أهل الكفر وأزيائهم وعاداتهم.

لقوله أ : «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[24].

(19) «روح المعاني» للألوسي: (146/18).
(20) أخرجه البخاري (5885)، من حديث ابن عباس È .
(21) أخرجه أبو داود (4098)، وأحمد: (325/2)، من حديث أبي هريرة Ç ، والحديث صححه الألباني في «صحيح الجامع»: (5095).
(22) أخرجه أبو داود (4099)، من حديث عائشة á ، والحديث صحّحه الألباني في «صحيح الجامع»: (5096).
(23) «فتح الباري» لابن حجر: (9/ 336).
(24) أخرجه أبو داود (4033)، وأحمد (50/2)، من حديث ابن عمر È ، والحديث حسَّنه الألباني في «الإرواء»: (5/ 109).

ولا يخفى أنَّ جملةَ شروطِ لباس المرأة وضوابطِه أُخِذَ من نصوص شرعيَّة صحيحة تُفْصِحُ عن حقيقة السَّتر المطلوب شرعًا، وإطلاقُ مفهوم السَّتر من غير ملاحظةٍ لهذه الشُّروط خطأٌ بَيِّنٌ ظاهرُ الفساد.

■ ■ ■

الثَّانية: أنَّ ربطَ صاحب المقالة مفهومَ الحجابِ بعُرف الصَّحابة أ يحتاج إلى تفصيل:

فإنْ كان مقصوده أنَّ هذا اللِّباسَ ـ ممَّا اعتاده الصَّحابة أ في ألبستهم وأزيائهم وعادتهم ـ لا يوجد في نفيه ولا في إثباته دليلٌ شرعي كما هو شأنُ العرف في الاصطلاح، فلا شكَّ في بطلان هذا القول.

يردُّه ما تقدَّم بيانه من النُّصوصِ الشَّرعيَّةِ والإجماع وعملِ الصَّحابة أ .

فقد ذكرتْ أمُّ سلمة á أنَّه: «لمَّا نزلت ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: 59]، خرج نساء الأنصار كأنَّ على رؤوسهنَّ الغربانَ من الأكسية»[25].

وقالت عائشة á :

«يرحم الله نساء المهاجراتِ الأُوَلَ، لمَّا أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: 31]، شَقَقْنَ مُروطهنَّ فاختمرْنَ بها»[26].

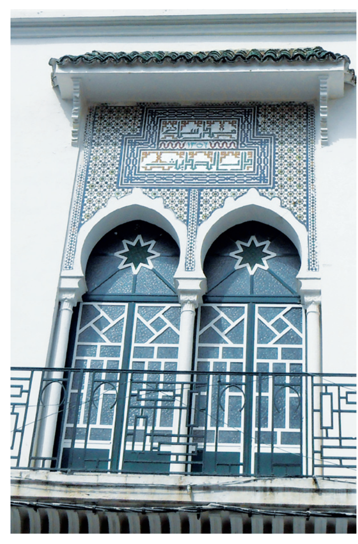
وهذا وغيرُه يدلُّ على أنَّهم كانوا في عوائدَ جاريةٍ فانقلبوا ـ استجابةً لنداء الشَّرع ـ إلى عوائدَ شرعيَّة.

أمَّا إنْ كان مقصوده من أنَّ مفهوم الحجاب فَرَضَه عرفُ الصَّحابة أ من منطلق عوائدَ شرعيَّة أقرَّها الدَّليل الشَّرعيُّ الصَّحيح فهذا حقٌّ، لكنْ يجب اتِّباعُه في وصفه وشرطه.

■ ■ ■

(25) أخرجه أبو داود (4101)، من حديث أمّ سلمة á ، والحديث صححه الألباني في «غاية المرام»: (282).
(26) أخرجه البخاري (4758)، من حديث عائشة á .

استطلاع وحوار



مدرسة (دار الحديث) بتلمسان

عزّ الدين رمضاني
رئيس التَّحرير

بتاريخ (1431/03/29) الموافق لـ (2010/03/14م) قام وفد من طاقم تحرير مجلَّة «الإصلاح» برحلة إلى أقصى غرب الجزائر؛ قصد معاينة معلم تاريخيٍّ، وصرح علميٍّ منحوت في ذاكرة الشَّعب الجزائريِّ المسلم عمومًا، وفي سجلِّ تاريخ «جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين» خصوصًا.

إنَّها مدرسة «دار الحديث» الكائنة وسط مدينة «تلمسان» عاصمة «الزِّيانيِّين»، المتميِّزة بطرازها المعماريِّ العربيِّ الإسلاميِّ الفريد من نوعه في تاريخ الجزائر الحديث، والمسمَّاة على دار الحديث الأشرفيَّة[1] الَّتي أسَّسها الملك الأشرف (ت: 635هـ) من ملوك الدَّولة الأيُّوبيَّة بمصر والشَّام في دمشق الشَّام سنة (628هـ).

تلك المدرسة التَّاريخيَّة الَّتي تخرَّج فيها أئمَّة في العلم وفحول في الأدب؛ كالحافظ ابن الصَّلاح، صاحب «المقدِّمة في علوم الحديث»، وهو أوَّل من وليها ومن درَّس الحديث فيها، والحافظيْن المزِّي والنَّوويِّ وغيرهم.

وهذه المدرسة بتلمسان يرجع الفضل في فكرة تأسيسها إلى أمير البيان الشَّيخ محمَّد البشير الإبراهيمي ، وقد شارك بنفسه في تخطيطها وقام بتشييدها، حتَّى إنَّه كان يشرف على العمَّال بنفسه[2]، وأسهم أهالي تلمسان رجالاً ونساءً بأموالهم وسواعدهم في بناء هذا الصَّرح العلميِّ من بدايته حتَّى نهايته.

وقد أرجع الشَّيخ البشير الفضل إلى «جمعيَّة العلماء»، فقال معترفًا:

«الفضل في إنشاء هذه المدرسة العظيمة لا يرجع لأحد غير «جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين»، فكلُّ فضل لهذا العاجز هو قطرة من بحر فضل «جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين»»[3].

(1) راجع «الدَّارس في تاريخ المدارس» لعبد القادر النّعيمي (ص 15).
(2) انظر «البصائر» (21/3) السَّنة الثَّالثة.
(3) «الشّهاب» (352/13 وما بعدها).

وصف البناية:

تمَّت أشغال البناء بالمدرسة في زمن قياسيٍّ لم يجاوز السَّنة والنِّصف، بسبب العمل المتواصل الدَّؤوب ليل نهار، والإمدادات الماليَّة والمادِّيَّة المتدفِّقة من أيادي أهل تلمسان السَّخيَّة.

واختير لها موقعٌ استراتيجي وسط المدينة؛ لتكون في مواجهة الثَّانويَّة الفرنسيَّة المسمَّاة «دوسلان» «doslane» وأعلى منها.

والبناية مكوَّنة من ثلاثة طوابق، تحتوي على قاعة متَّسعة معدَّة لإقامة الصَّلوات، وفوقها قاعة لإلقاء المحاضرات، وفوقها بناء يحتوي على أربعة أقسام، تزاول فيها دروس العلم، وبهذا الطَّابق صحن ووسط فيه بعض المرافق[4].

(4) انظر في وصف هذه البناية بطرازها الأصليِّ الأصيل الخطاب الَّذي ألقاه رئيس الجمعيَّة الدِّينيَّة للمدرسة بمناسبة افتتاح المدرسة في مجلَّة «الشِّهاب» (8/م13/363).



مشاهد من حفل التدشين:

وجَّه الشَّيخ البشير دعوة عامَّة لحضور هذا الحفل إلى وجهاء وأعيان القطر الجزائريِّ عبر جريدة «البصائر»، وقال فيها:

«ونرجو ممَّن لم تصله الدَّعوة أو لم نعرف عنوانه أن يعتبر هذه الدَّعوة المنشورة في «البصائر» دعوة خاصَّة»[5].

وعيِّن يوم الاثنين (22 رجب 1356هـ الموافق لـ: 1937/9/27م) ليكون يوم افتتاح «دار الحديث» بتلمسان، وكان يومًا حافلاً بهيجًا مشهودًا، حضره ما يزيد على عشرين ألفًا من أبناء تلمسان ومن غيرها.

وكان في طليعة الوافدين: المجلس الإداريُّ لـ«جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين»، يتقدَّمهم رئيس الجمعيَّة الشَّيخ عبد الحميد ابن باديس ومرافقوه وأعوانه، منهم الشَّيخ العربي التَّبسِّي والشَّيخ مبارك الميلي والأستاذ الفضيل الورتلاني وآخرون.

(5) «البصائر» (246/2) السَّنة الثَّانية.

وقد تولَّى الافتتاح الشَّيخ ابن باديس بعد أن سلَّمه الشَّيخ البشير مفتاح المدرسة قائلاً له:

«أخي الأستاذ الرَّئيس! لو علمت في القطر الجزائريِّ، بل في العالم الإسلاميِّ رجلاً في مثل حالتكم، له يد على العلم مثل يدكم، وفضل على النَّاشئة مثل فضلكم لآثرته دونكم بفتح هذه المدرسة، ولكنِّي لم أجد، فباسم تلمسان وباسم الجمعيَّة الدِّينيَّة بالخصوص؛ أناولكم المفتاح، فهل لهذه المدرسة أن تتشرَّف بذلك»[6].

وكانت للشَّيخ ابن باديس كلمة ألقاها على الحاضرين بهذه المناسبة، حيَّا فيها أهل تلمسان وشكرهم على ما بذلوه من مهج وأموال في تشييد هذا الصَّرح فقال لهم:

«يا أبناء تلمسان! يا أبناء الجزائر! إنَّ العروبة من عهد «تُبَّع» إلى اليوم تحيِّيكم، وإنَّ الإسلام من يوم محمَّد ﷺ إلى اليوم يحيِّيكم، وإنَّ أجيال الجزائر من اليوم إلى يوم القيامة تشكركم وتذكر صنيعكم الجميل، يا أبناء تلمسان! كانت عندكم أمانة من تاريخنا المجيد فأدَّيتموها، فَنِعْمَ الأمناء أنتم، فجزاكم الله خير جزاء الأمناء، والسَّلام عليكم ورحمة الله»[7].

وأبرز ما ميَّز هذا اليوم الَّذي سمَّاه الشَّيخ البشير بـ: «العرس العلميِّ» إلقاء الشَّيخ ابن باديس لأوَّل درس في هذه المدرسة في موضوع الحديث الَّذي شيِّدت البناية لأجله، ولتكون اسمًا على مسمًّى، فاستهلَّ الشَّيخ درسه بشرح حديث النَّبيِّ ﷺ المرويِّ في «الصَّحيحين» وهو قوله ﷺ: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ**» الحديث، وقد كان درسًا ماتعًا بشهادة من حضر، حتَّى قال واصف الحفل ومرافق ابن باديس «مصطفى بن حلُّوش»:

«إنَّ هذا الدَّرس كانت ألفاظه على قدر معانيه، ومعانيه لا تستغني عن قليل من ألفاظه، وكان آية في متانة الأسلوب وحسن البيان، فإذا كانت خسارة القرَّاء فيه لا تعوَّض. لأنَّه فات عليهم تسجيله أو كتابته. فلست المسؤول؛ فلقد. والله. حاولت نقله فخانني الجهل بفنِّ الاختزال»[8].

ثمَّ تتابع العلماء في أمسية ذلك اليوم على إلقاء الدُّروس، فأمتع الحاضرين الأستاذان مبارك الميلي والشَّيخ العربي التَّبسِّي.

(6) «الشِّهاب» (8/م13/351).
(7) «الشِّهاب» (8/م13/352).
(8) «الشِّهاب» (8/م13/354).

شرح الأوَّل حديث: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»، وفسَّر الثَّاني قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ﴾ الآية [آل عمران: 188][9].

وختم الحفل بإلقاء أمير شعراء الجزائر محمَّد العيد آل خليفة لقصيدة كلُّها عيون وغرر، عرض فيها من ماضي الأمَّة وحاضرها عرضًا شعريًّا بليغًا، ملك القلوب وسحر العواطف.

وجاء فيها قوله[10]:

«تلمسان» احتفت بالعلم جارًا ... وما كالعلم للبلدان جار
لقد لبست من الإصلاح تاجًا ... يحقُّ به لأهليها الفخار
لقد بُعث «البشيرُ» لها بشيرًا ... بمجد كالرِّكاز بها يُثار
وفي «دار الحديث» له صوانٌ ... بديع الصنع مصقولٌ مُنار
به عرض «البشير» فنون علم ... وآداب ليجلوها الصغار
فيا «دار الحديث» عِمِي نهارًا ... وعمرك كلُّه أبدًا نهار

ثمَّ استمرَّ الحفل في يومه الثَّاني بتناوب رجالات الجمعيَّة من علماء وشعراء وخطباء في إلقاء ما عندهم من روائع البيان وفصيح الشِّعر ومتين النَّثر والخطب، أمتعوا بها الحاضرين، وغذَّوا ألبابهم، كالفضيل الورتلاني ومحمَّد العيد وفرحات الدَّرَّاجي ومصطفى بن حلُّوش وغيرهم.

(9) «الشِّهاب» (8/م13/354).
(10) «آثار محمَّد البشير الإبراهيمي» (1/309).



مدرسة «دار الحديث» كما أرادها الشيخ الإبراهيمي:

قرَّرت «جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين» تعيين علماء كبار في عواصم المقاطعات الكبرى في القطر الجزائريِّ؛ ليكون كلُّ واحد منهم مشرفًا على الحركة الإصلاحيَّة والعلميَّة في المقاطعة كلِّها.

فاختير الشَّيخ ابن باديس ليكون في مدينة قسنطينة، والشَّيخ الطَّيِّب العقبيُّ بالجزائر العاصمة، والشَّيخ الإبراهيمي بمقاطعة وهران وعاصمتها العلميَّة القديمة تلمسان، فانتقل إليها بمعيَّة أهله وأقام بها، وأحيا بها رسوم العلم، وأنشأ فيها مدرسة «دار الحديث» لتكون نواة لمشروعه العلميِّ الكبير كما كانت تصوِّره له الخواطر، يعيد به مجد تلمسان العلميَّ[11].

وقد اختار نخبة من المعلِّمين الأكفَاء للصِّغار، وتولَّى بنفسه تعليم الطَّلبة الكبار من الوافدين وأهل البلد، وكان عدد الطَّلبة يقارب الألفين موزَّعين على الأقسام والمسجد من السَّادسة صباحًا إلى العاشرة ليلاً.

وكان الشَّيخ الإبراهيميُّ يلقي عشرة دروس في اليوم، يبدأ بدرس في الحديث بعد الصُّبح، ويختمها بدرس في التَّفسير بين المغرب والعشاء، وبعد العشاء ينصرف إلى أحد النَّوادي فيلقي محاضرة في التَّاريخ الإسلاميِّ، بدأها من الحقبة الموالية لظهور الإسلام من العصر الجاهلي إلى مبدأ الخلافة العبَّاسيَّة في بضع مئات من المحاضرات[12].

وفي هذه المدرسة ختم «صحيح مسلم» دراية، وأتمَّ النِّصف من تفسير القرآن على طريقته السَّلفيَّة وبأسلوبه المعروف[13].

إنَّ هذا النَّشاط العلميَّ المكثَّف الَّذي قام به العلاَّمة الإبراهيميُّ هو ـ قبل كلِّ شيء ـ دعوة إلى الكتاب الكريم والسُّنَّة المطهَّرة، وهو من الأعمال الَّتي تسجَّل بماء الذَّهب لـ«جمعيَّة العلماء» على الوطن الجزائريِّ بعد أن قضت عليها خرافة الطُّرقيَّة، وضعف المنتسبين للعلم عن إدراك حقائقهما[14]، وإحياءً لدروس العلم بعد انمحاء رسومه وأفول نجومه، وعودة إلى أصوله النَّيِّرة ومناهجه الواضحة الَّتي أبقت للأمَّة إسلامها وعقيدتها وهويَّتها، وإعدادًا لجيل يزيل عن الأمَّة خوانق الغمَّة، ويبعث في شريانها روح الهمَّة، محمَّديَّ الشَّمائل غير صخَّاب ولا عيَّاب، ولا مغتاب ولا سبَّاب، متقلِّبًا في الطَّاهرين والطَّاهرات، لا يمسُّه زيغ العقيدة، ولا يغشى قلبه سحب الخرافات، صحيح العقد في الدِّين، متين الاتِّصال بالله، مملوء القلب بالخوف منه، خاوي الجوانح من الخوف من المخلوق[15].

(11) «عيون البصائر» (1/36)، (5/283).
(12) من كلام الشَّيخ الإبراهيميِّ من «عيون البصائر» (5/283).
(13) «البصائر» السَّنة الثَّالثة (3/21).



دار الحديث بين الأمس واليوم:

مرَّت دار الحديث بمراحل عويصة طيلة وجودها، بدءً بأمر غلقها أصدره الوالي العامُّ الفرنسيُّ بعد ثلاثة أشهر من فتحها، وقد تحدَّى الشَّيخ البشير السُّلطات الفرنسيَّة ورفض التَّوقيع على محضر الأمر بغلق المدرسة، وكان جزاؤه إثر ذلك أن قدِّم إلى المحاكمة وقضي عليه بغرامة ماليَّة[16]، وانتهاءً بغلق أبوابها في وجوه الطَّلبة إبَّان الثَّورة التَّحريريَّة من عام 1956 إلى 1962م، واتَّخذها العسكر الفرنساوي وقتئذ ثكنة له وكانت فرصته في الاستيلاء على أرشيف المدرسة حيث لم يبقَ منه الآن أثرٌ يُذكر.

(14) جريدة «البصائر» (3/180).
(15). عبارات للإبراهيميِّ في تصوُّره لشباب هذه الأمَّة.
(16). مقال للدُّكتور سعد الله بعنوان: «الشَّيخ الإبراهيميّ في تلمسان» مجلَّة «الثَّقافة» عدد (101/93).

وعرفت «دار الحديث» توسعة أضيفت إلى البناية القديمة بعد عشر سنوات من بنائها عام (1947م)، ومعالم هذه التَّوسعة بادية اليوم لزائريها.

وبعد الاستقلال لم تعد المدرسة إلى نشاطها المعهود كما كانت عليه زمنَ الشَّيخ البشير، وظلَّت على تلك الحال من الرُّكود والجمود، حتَّى انتعشت من جديد ـ نسبيًّا ـ بتأسيس معاهد التَّعليم الأصليِّ في عهد مولود قاسم : وزير الأوقاف والتَّعليم الأصليِّ، لكن سرعان ما أُلغي نظام ذلك التَّعليم واستبدل بالتَّعليم العامِّ المعروف الآن، ومن المعلوم أنَّ للمدرسة عقدَ ملكيَّة خاصّ بأبناء تلمسان[17] وليست وقفًا عامًّا، بُنيت بمال الأمَّة وستبقى للأمَّة، كما نصَّ على ذلك الشَّيخ الإبراهيميُّ في كلمته عند افتتاح المدرسة:

«إنَّ أكبر دعامة تقوم عليها النَّهضة الجزائريَّة الحديثة، هي المدارس الحرَّة بمال الأمَّة، وقد قامت تلمسان بقسطها من هذا الواجب»[18].

وهي الآن في الوقت الحاضر قد تخصَّصت في التَّعليم التَّحضيريِّ تضمُّ نحو (300) إلى (400) تلميذ، يؤطِّرهم عشرة (10) من المعلِّمات ومدير قائم عليها[19]، يدفع التَّلاميذ مبلغًا سنويًّا يتمُّ دفعه على شكل رواتب للمعلِّمات.

وبالمدرسة مسجد تقام فيه الصَّلوات الخمس وصلاة الجمعة، وبها مكتبة متواضعة يؤمُّها بعض الدَّارسين للمطالعة ومراجعة الدُّروس، وفيها حجرة مطلَّة على الشَّارع العام، كانت مكتبًا للشَّيخ البشير يزاول فيها أشغاله العلميَّة والإداريَّة.

وفي المدَّة الأخيرة استفادت المدرسة من دعم ماليٍّ لإعادة ترميم ما هو آيل للزَّوال والسُّقوط وعسى أن يُتبع ذلك بما يحيي رسالتها التي من أجلها أُنشئت، فتستعيد اسمها السَّاطع ومجدها الضَّائع بإحياء دروس العلم والوعظ والإرشاد، وتربية النَّاشئة وفق الأصول والآداب الإسلاميَّة، وأملنا في الله ـ جل وعلا ـ كبير أن تتحقَّق أمنية الشَّيخ البشير وإخوانه من جمعية العلماء وسائر المحبِّين لهم والمعتنين بجهودهم وما خلَّفوه من الموروث العلمي والأدبي والتَّاريخي، فرحم الله الشَّيخ البشير ورفع درجته في علِّيِّين.

---

(17) عقد الملكيَّة موجود الآن ومحفوظ بإدارة المدرسة يقع في 100 صفحة وقد أخذنا صورة من صفحاته الأولى.

(18) «البصائر» السَّنة الثَّانية (2/246).

(19) وهو الَّذي استقبلنا في مكتبه ورحَّب بنا، وأمدَّنا بمعلومات عن هذه المدرسة، فله جزيل الشُّكر والعرفان. والشُّكر موصول إلى بعض الأفاضل من شباب تلمسان.



أخبار التراث

جديد المخطوطات المطبوعة

عمار تمالت

باحث بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض

لقد عرفت السَّاحة الثَّقافيَّة والعلميَّة في السِّنين الأخيرة، نهضةً ملموسةً في مجال النَّشر والتَّأليف، في مختلف العلوم الشَّرعيَّة والمعارفيَّة.

وهذا ـ ولا شكَّ ـ ممَّا يُثلج صدورَ طلاَّب العلم، ويروي غليلَ أهل البحث والتَّحقيق منهم.

وقد نال مجالُ تحقيق المخطوطات ونشرها قصبَ السَّبق من ذلك.

وهذا يدلُّ على اهتمام بالغ بهذا الشَّأن، كيف لا؟! وهو من آكد واجبات الأمَّة نحو علمائها الأسلاف، الَّذين خلَّفوا لها ثروةً علميَّةً هائلةً، وإن كان ما طُبع ونُشر من مخطوطات علمائنا لا يغطِّي أقلَّ القليل ممَّا هو حبيس الخزائن والمكتبات.

نسأل الله أن يعين علماءَ الأمَّة وطلاَّبَها على إنقاذه وإخراجه لتستفيد منه الأجيال.

وقد عمدتُ في مقالي هذا، في هذه المجلَّة الغرَّاء، إلى ذكر شيء من المخطوطات الَّتي طُبعت في السَّنتين الأخيرتين، عسى أن ينتفعَ به طلاَّبُ العلم والدَّارسون.

أوَّلاً ـ في تفسير القرآن الكريم وعلومه:

- «التَّفسير البسيط»، لأبي الحسن علي ابن أحمد الواحدي (ت 468هـ).

وهو من أوسع تفاسير الواحدي الثَّلاثة: «البسيط»، «الوسيط»، «الوجيز»، وقد طُبع من قبل «الوسيط» و«الوجيز»، وهذا «البسيط» يُطبع الآن ليضيف تحفة رائعة إلى المكتبة التَّفسيريَّة.

والكتاب طُبع في خمس وعشرين مجلَّدًا بمطبعة جامعة الإمام محمَّد بن سُعود الإسلاميَّة بالرِّياض سنة (1430هـ ـ 2009م)، وأصله عدَّة رسائل علميَّة بالجامعة المذكورة.

- «رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز»، لعبد الرزاق بن رزق الله الرسعني (ت 661هـ).

طبع في تسعة مجلَّدات على نفقة محقِّقه الشَّيخ عبد الملك بن عبد الله ابن دهيش سنة (1429هـ ـ 2008م).

- «تفسير القرآن الكريم»، لعبيد الله ابن أحمد بن عبيد الله القرشي الإشبيلي المعروف بـ«ابن أبي الربيع» (ت 688هـ).

طُبع بمطبعة جامعة الإمام محمَّد بن سُعود الإسلاميَّة بالرِّياض سنة (1430هـ ـ 2009م)، بتحقيق الدُّكتورة صالحة راشد آل غنيم، وأصله رسالتها في الدُّكتوراة.

والمطبوع الجزء الأوَّل مِن الكتاب فقط إلى أثناء سورة البقرة، وهو الَّذي بقي منه في خزانة الرِّباط بالمغرب.

● «مفـردة يعقوب بن إسحاق الحضرمـي»، للحسن بن علي بن إبراهيم الأهوازي (ت 446هـ).

طُبع بدُبَي، ضمن نشاطات جائزة دبي الدّولية للقرآن الكريم سنة (1430هـ. 2009م)، بتحقيق عمَّار أمين محمَّد الددو.

● «الفوائـد اللاَّئحة من معاني الفاتحة»، لمحمَّد بن إبراهيم بن سعد الله، المعروف بابن جماعة (ت 733هـ).

طُبـع بدار الظَّاهر للنَّشر والتَّوزيـع بالكويت سنة (1430هـ. 2009م)، بتحقيق حايف النَّبهان.

● «الوقـف والابتـداء»، لأحمد بـن محمَّد ابـن أوس المقرئ (كان حيًّا سنة 341هـ).

طُبـع بجامعـة قاريـنوس ببنغازي سنــة (2008هـ)، بتحقيق مصطفى عبد الفتَّاح العريبي.

● «البرهـان في إعجـاز القـرآن»، أو: «بديـع القـرآن»، لعبدالعظيـم بن عبد الواحد بن ظافـر البغدادي المعروف بـ«ابن أبي الأصبع» (ت 654هـ).

طُبـع بالـدَّار العربيَّـة للموسوعات ببيروت سنــة (1430هـ. 2010م)، بتحقيق كلٍّ من: أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي.

● «تنبيـه الأنام على ما في كتاب الله من المواعظ والأحكام»، لأبي العبَّاس أحمد ابن محمَّد الرّهوني (ت؟؟؟).

طُبـع بـوزارة الأوقـاف والشُّـؤون الإسلاميَّة بالرِّبـاط سنة (1430هـ. 2009م)، بتحقيق الحسن بوقسيمي.

● «تحفـة الإخوان في الخُلَف بين الشَّـاطبيَّة والعنوان»، لمحمَّد بن محمَّد بن الجزري (ت 833هـ).

طُبع بدار كنوز إشبيليا بالرِّياض سنة (1430هـ. 2009م)، بتحقيق أحمد بن حمود الرويثي.

● «منـح الفريدة الحمصيَّة في شرح القصيدة الحصريَّة في قـراءة الإمام نافع»، لمحمَّد ابن عبـد الرَّحمن الإشبيلي المعروف بـ«ابن عظيمة» (ت 543هـ).

طُبع بوزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلاميَّة بالدَّار البيضاء سنة (2008هـ)، بتحقيق توفيق العبقري.

● «نكـت وتنبيهـات في تفسـير القـرآن المجيـد»، لأحمد بن محمَّد البَسيلي المالكي (ت 830هـ).

طُبع قسمٌ منه في ثلاثة أجزاء بوزارة الأوقاف بالدَّار البيضاء سنة (1429هـ. 2008م)، بتحقيق محمَّد الطَّبراني.

● «العنـوان في القـراءات السَّبع»، لإسماعيـل ابن خلف ابن سعيد السّرقسطي (ت455هـ).

طُبـع بمكتبة الإمـام البخـاري بالقاهـرة سنــة (1429هـ. 2008م)، بتحقيق خالد حسن أبي الجود.

ثانيا. في الحديث الشريف وعلومه:

● «الأوسـط في السُّـنن والإجمـاع والاختـلاف»، لمحمَّـد بن إبراهيـم بـن المنـذر النَّيسابـوري (ت 319هـ)، وهو مـن أوسع الكتب في فقه السُّنَّة.

طُبـع كامـلاً في خمسة عشـر مجلَّـدًا، بدار الفـلاح للبحث العلمي سنة (1430هـ. 2009م)، بتحقيق مجموعة من الباحثين ومراجعة أحمد بن سليمان بن أيُّوب.

● «شـرح الإلمام بأحاديث الأحكام»، لمحمَّد ابن علي بن وهب القشيري المعروف بـ«ابن دقيق العيد» (ت 702هـ).

طُبـع كامـلاً في خمسة مجلَّدات بـدار النَّـوادر بدمشق سنة (1430هـ. 2009م)، بتحقيـق محمَّـد خلوف العبـد الله، وقد اعتمد فيه على ثلاث نسخ خطِّيَّة.

وللتَّنبيه فإنَّ الكتاب طبـع قبل سنوات في مجلَّدين، لكن تلك الطَّبعة غير كاملة، حيث إنَّها لا تمثِّل غير سدس الكتاب.

● «مصابيـح الجامع»، وهـو شرح على «الجامـع الصَّحيح» للإمام البخاري، تأليف: بدر الدِّين محمَّد بن أبي بكر الدّماميني المالكي (ت 827هـ).

طُبـع في عشرة مجلَّدات بدار النَّوادر بدمشق سنة (1431هـ. 2010م)، بتحقيق نور الدِّين طالب مع جماعة.

● «الأحـكام الكبـير»، للحافظ إسماعيل ابـن عمر بن كثير الدِّمشقي (ت 774هـ).

طُبـع المجلَّد الثَّالـث منه في ثلاثة مجلَّـدات بدار النَّوادر بدمشق سنــة (1431هــ. 2010م)، بتحقيـق نـور الدِّيـن

طالب مع جماعة.

وللتّنبيه فإنَّ الكتاب لم يبق منه غير هذه النُّسخة من المجلَّد الثَّالث، وهي محفوظة بالمكتبة الوطنيَّة بتونس.

• «رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام»، لعمر بن علي ابن سالم الفاكهاني المالكي (ت 734هـ).

طُبع في خمسة مجلَّدات بدار النَّوادر بدمشق سنة (1431هـ ـ 2010م)، بتحقيق نور الدِّين طالب وجماعة.

• «نوادر الأصول في معرفة أخبار الرَّسول ﷺ»، لمحمَّد بن علي بن الحسن المعروف بـ«الحكيم التِّرمذي» (ت 320هـ).

طُبع كاملاً في سبعة مجلَّدات بدار النَّوادر بدمشق سنة (1431هـ ـ 2010م)، بتحقيق توفيق محمود تكلة.

وقد امتازت هذه الطَّبعة عن الطَّبعة الَّتي صدرت قديمًا في مجلَّدين بعدَّة أمور مِنْ أهمِّها إثبات أسانيد الحكيم التِّرمذي الَّتي اختفت في الطَّبعة القديمة.

ثالثا. في الفقه وأصوله:

• «شرح تحفة الحكَّام في نكت العقود والأحكام» لابن عاصم، لولده محمَّد بن محمَّد (ت بعد 857هـ).

طُبع في مجلَّدين على نفقة محقِّقه الدُّكتور عبد الكريم شهيون سنة (1431هـ ـ 2010م)، معتمدًا على أربع نسخ خطِّيَّة.

• «عيون المذاهب»، لمحمَّد بن محمَّد بن أحمد الكاكي (ت 749هـ).

طُبع بديوان الوقف السُّنِّي ببغداد سنة (1429هـ ـ 2008م)، بتحقيق محمود بندر العيساوي.

• «الانتصار لأهل المدينة»، لمحمَّد بن عمر القرطبي المعروف بـ«ابن الفخَّار» (ت 419هـ).

طُبع بمركز الدِّراسات والأبحاث وإحياء التُّراث بالرِّباط سنة (1430هـ ـ 2009م)، بتحقيق محمَّد التّمسمساني الإدريسي.

• «منتخب الأحكام»، لمحمَّد بن عبد الله بن عيسى المعروف بـ«ابن أبي زمنين» (ت 399هـ).

طُبع بمركز الدِّراسات والأبحاث وإحياء التُّراث بالرِّباط سنة (1430هـ ـ 2009م)، بتحقيق محمَّد مساعد.

• «القواعد الفقهية»، لأحمد بن الحسن بن عبد الله الحنبلي المعروف بـ«ابن قاضي» الجبل (ت771هـ).

طبع الجزء الأوَّل منه بدار النَّوادر بدمشق سنة (1431هـ ـ 2010م)، بتحقيق د. صفوت عبدالهادي.

• «لبُّ اللُّباب في بيان ما تضمَّنته أبواب الكتاب من الأركان والشُّروط والموانع والأسباب»، لمحمَّد بن عبد الله بن راشد القفصي (ت736هـ)، وهو شرح على مختصر ابن الحاجب الفرعي المعروف بـ«جامع الأمَّهات».

طُبع في مجلَّدين، بدار البحوث للدِّراسات الإسلاميَّة وإحياء التُّراث بدبي سنة (1428هـ ـ 2007م)، بتحقيق الأستاذين: محمَّد المدنيني ولحبيب بن طاهر.

• «المُذهِب في ضبط مسائل المَذهَب»، لابن راشد القفصي.

طُبع في مجلَّدين، بدار ابن حزم ببيروت سنة (1429هـ ـ 2008م)، بتحقيق: الدُّكتور محمَّد بن الهادي أبو الأجفان.

• «الدُّرر اللَّوامع في شرح جمع الجوامع»، لأحمد بن إسماعيل الكوراني (ت 893هـ).

طُبع في خمسة مجلَّدات، بمطابع الجامعة الإسلاميَّة بالمدينة النَّبويَّة سنة (1429هـ ـ 2008م)، بتحقيق: الدُّكتور سعيد ابن غالب المجيدي، وأصله رسالته في الدُّكتوراه.

• «المهمَّات في شرح الرَّوضة والرَّافعي»، لعبد الرَّحيم ابن الحسن الإسنوي (ت 772هـ).

طُبع في عشرة مجلَّدات، بدار ابن حزم ببيروت سنة (1430هـ ـ 2009م)، بتحقيق: أبو الفضل الدّمياطي.

• «شرح الرِّسالة»، للقاضي عبدالوهَّاب ابن علي البغدادي (ت422هـ)، وهو من أقدم شروحها.

طُبع الجزء الثَّاني منه عن النُّسخة الأزهريَّة الوحيدة، بدار ابن حزم ببيروت سنة (1428هـ ـ 2007م)، في مجلَّدين، بتحقيق: أبو الفضل الدّمياطي.

رابعًا. في التاريخ والتراجم:

● «الإكليل والتَّاج في تذييل كفاية المحتاج»، لمحمَّد بن الطَّيِّب ابن عبد السَّلام القادري (ت 1187هـ).

طُبع بالجمعيَّة المغربيَّة للتَّأليف والتَّرجمة بالرِّباط سنة 2009م، بتحقيق مارية دادي.

● «الإلمام ببعض من لقيته من علماء الإسلام»، لعبد الواحد بن أحمد السِّجلماسي (ت 1003هـ).

طُبع بالرِّباط سنة (2008م)، على نفقة محقِّقته نفيسة الذَّهبي، عن نسخته الكتانيَّة الوحيدة.

● «البنان المشير إلى علماء وفضلاء آل أبي كثير»، للقاضي محمَّد بن محمَّد باكثير الكندي (ت 1355هـ).

طُبع بمكتبة الشَّافعي بالمَكَلا باليمن سنة (1429هـ. 2008م)، بتحقيق المحقِّق البارع عبد الله محمَّد الحبشي.

خامسًا. في علوم اللغة العربية والأدب:

● «العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه»، للحسن ابن علي ابن رَشيق القيرواني (ت 463هـ).

طُبع طبعة جديدة محقَّقة، في ثلاثة مجلَّدات، بالمجمع التُّونسي للعلوم والفنون سنة 2009م، بتحقيق: توفيق النّيفر ومختار العبيدي.

● «شرح أبيات سيبويه»، ليوسف بن الحسن بن عبد الله السِّيرافي (ت 385هـ).

طُبع في مجلَّدين بدار العصماء بدمشق سنة (1431هـ. 2010م)، بتحقيق الدُّكتور محمَّد علي سلطاني، معتمدًا على نسخة فريدة تركيَّة.

وللتَّنبيه؛ فإنَّ الكتاب طُبع سابقًا بمصر، لكن طبعته تلك كانت ناقصة، وقد نبَّه على ذلك المحقِّق.

● «المنهاج في شرح جمل الزّجاجي»، ليحيى بن حمزة العلوي (ت 769هـ).

طُبع في مجلَّدين بمكتبة الرُّشد بالرِّياض سنة (1430هـ. 2009م)، بتحقيق الدُّكتور هادي عبد الله ناجي، وأصله رسالته في الدُّكتوراه بكليَّة الآداب بجامعة بغداد.

● «شرح حدود الأبَدي في علم النَّحو»، لعلي بن أحمد الرَّسْموكي النَّحوي (ت 1049هـ).

طُبع بمكتبة القراءة للجميع بالدَّار البيضاء سنة (1430هـ. 2009م)، بتحقيق البشير التّهالي.

● «كتاب الخطِّ»، لعبد الرَّحمن بن إسحاق الزّجاجي (ت 337هـ).

طُبع بدار صادر ببيروت سنة (1430هـ. 2009م)، بتحقيق الدُّكتور تركي بن سهو العتيبي.



عبد المالك بن مبروك ـ تيزي وزو

تحقيق الفلاح بالثناء على مجلة الإصلاح

قِفوا حَيُّوا طُلولَ الظَّاعِنينا — ومَنْ كانوا هُنالِكَ قاطنينا
وآثاراً حكَتْ ليَ ذِكْرياتٍ — أهاجَتْ عندها الشَّوْقَ الدَّفينا
وبعْدَ تحيَّةِ الأطْلالِ عُوجُوا — على أرْضِ الجزائرِ قاصدينا
إلى دار الفضيلة حيْثُ تأْوي — مجلَّتُنا وحَيُّوا القائمينا
هُوَ الإصْلاحُ عُنوانٌ تَسمَّتْ — بهِ ولَهُ دَعَتْنا أجْمَعينا
إلى الرحمن تدعو باتِّباعٍ — وتَبْرَأُ مِنْ ضَلالِ المُحْدِثينا
على منهاجِ خيرِ النَّاسِ دينًا — صَحابَةِ أحْمدٍ والتَّابعينا
مَواضيعُ المَجلَّةِ أدْخلتْنا — رياضَ الصَّالحينَ المُصْلحينا
مباحثُ في العقيدة ذاتُ شأنٍ — تُبَيِّنُ للورى النَّهجَ المبينا
أساسُ الدِّينِ توْحيدٌ نقيٌّ — بهِ بعثَ الإلهُ المُرْسلينا
وإنَّ الشِّرْكَ خُسْرانٌ مبينٌ — لأنَّ النارَ مأْوى المُشْركينا
مواضيعُ الصَّلاةِ بها أقرَّتْ — عُيونَ الرَّاكعينَ السَّاجدينا
فَطَوْرًا عنْ مسائلها وطَوْراً — تُبيِّنُ فضْلها للخاشعينا
وفي رَمَضانَ إصْلاحٌ أطلَّتْ — بتوجيهاتِها للصَّائمينا
وفي ذي حِجَّةٍ أحْكامُ حَجٍّ — تُبيِّنُ فِقْهَهُ للنَّاسكينا
وأحْكامُ الزَّكاةِ لها نصيبٌ — تُوضِّحُ أمْرَها للمُنفقينا
وفي العيدَيْنِ آدابٌ وفِقْهٌ — وتَهْنِئَةٌ لكُلِّ الفائزينا
فإنَّ العيدَ جائزةُ امْتحانٍ — تخُصُّ العابدينَ المُخْلصينا
كُنوزُ تُراثِنا فيها تجلَّتْ — أزَلْتِ غُبارَها للباحثينا
قضايا أمَّةِ الإسلام نالَتْ — نصيبًا في مَجلَّتنا مَكينا
وتَرْبيةُ الصِّغارِ لكلِّ طَوْرٍ — لَعلَّ اللهَ يُصْلحُ ناشئينا
وأحْكامُ النِّساءِ فهُنَّ أيْضًا — شقائقُ للرِّجالِ المؤمنينا

وأحْكامُ البيوعِ لأهْلِ سُوقٍ   تُحلِّلُ صَفْقَةَ المُتعاملينا
فتاوى شيْخِنا فرْكوسِ فيها   أُصُولُ الفقْهِ تَمْنَحُنا اليَقينا
ورمْضاني وعَوْسات و عبد الْ   مجيدِ وأزْهر مع آخرينا
أَبَنْتُمْ في التراجمِ عنْ رجالٍ   مِنَ العُلمَا الدُّعاةِ الصَّادقينا
وفِقْهُ السِّيرةِ الغرَّاءِ تَرْوي   حيَاةَ المُصْطفى والسَّالِفينا
نَبيٍّ أرْسلَ الرَّحمنُ يدْعو   إلَيْهِ رحْمةً للعالمينا
ومَيْدانُ الرَّقائِقِ ليْسَ يُنْسىَ   بهِ وضَحَتْ طريقُ السَّالِكينا
وقد صَحَّحْتِ أخْطاءً تفَشَّتْ   وكان النَّاسُ عنْها غافِلينا
كما دافعْتِ عنْ مِنْهاجِ حقٍّ   كَسَرْتِ بِهِ سِهامَ الطَّاعنينا
جزى الله الأُلَى بذلوا جُهُودًا   وليْسَ يَضيعُ أجْرُ العامِلينا
قدْ ظهرتْ مجلَّتنا أخيرًا   بِتَصْميمٍ يسُرُّ النَّاظرينا
جزاكِ اللهُ يا إصْلاحُ خيْرًا   فإنَّكِ قدْ نفَعْتِ المُسْلمينا
أبْقاكِ الإلهُ لنا دليلاً   ونِبْراسًا يبُثُّ النُّورَ فِينا
فيارَبَّاهُ أكْرِمْنا بِعِلْمٍ   وأرْشِدْنا الصِّراطَ المُسْتَبينا
فَمَنْ يُحْرِزْ عُلومَ الدِّين حقًّا   فذلك أحْرزَ الكنزَ الثَّمينا
وَوَحِّدْ أمَّةَ الإسْلامِ دَوْمًا   على مِنْهاجِ خَيْرِ المُرْسلينا
ففي الوحْيينْ عَينُ هُدًى مَعينٌ   بها الرَّحمن يهدي المتَّقينا
ونَجِّ بلادَنا مِنْ كُلِّ شَرٍّ   لِتُصْبِحَ أرْضُنا بَلَدًا أمِينا
على خَيْرِ الأنامِ صَلاةُ ربِّي   وتَسْليمٌ كثيرٌ ما حَيِينا
بِبَحْرٍ وافرٍ حَبَّرْتُ شِعْري   بِرَبِّ النَّاس دَوْمًا مُسْتَعينا
وفي واحاتِكُمْ قدَّمْتُ شِعْري   لِمَنْ كتبوا لَكُمْ والقارئينا
بَدَأْتُ قصيدتي العَصْمَا بقوْلي   «قِفُوا حَيُّوا طُلُولَ الظَّاعِنينا»



قضايا تربوية

الأطفال في بيت النبوة

5

فريد عزوق

عَن ابنِ عَبَّاسٍ È أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ:

«يَا غُلامُ! أَوْ يَا غُلَيِّمُ! أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ؟

فَقُلْتُ: بَلَى.

فَقَالَ: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»[1].

(1) أحمد: «المسند» (2803)، وقال محقِّقه: «حديث صحيح».

قولُه ﷺ: «يَا غُلامُ[2]! أَوْ يَا غُلَيِّمُ! أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ؟».

فيه بيان للمسؤوليَّة الَّتي أُنيطت بالآباء والمربِّين في العناية بفئة الشَّباب، وبخاصَّة الَّذين لم يبلغوا الحلم[3]، ذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ على ما كُلِّف به من واجب التَّبليغ وأداء الأمانة ورعاية شؤون الرَّعيَّة؛ لم يمنعه من الالتفات إلى أحد الفتيان الصِّغار، وتخصيص وقت لتعليمه وتوجيهه.

فأين أولئك الآباء الَّذين يهملون تربية أبنائهم وتعليمهم أمر دينهم وما ينفعهم في حياتهم؟! بدعوى انشغالهم وضيق وقتهم!

وصدق ابن القيِّم : حين قال: «فمن أهمل تعليم ولده وما ينفعه وتركه سُدى؛ فقد أساء إليه غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنَّما جاء فسادهم من قِبل الآباء، وإهمالهم لهم، وترك تعليمهم فرائض الدِّين وسننه، فأضاعوهم صغارًا فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كبارًا، كما عاتب بعضهم ولده على العقوق فقال: يا أبت! إنَّك عققتني صغيرًا فعققتك كبيرًا، وأضعتني وليدًا فأضعتك شيخًا»[4].

في تخصيص النَّبيِّ ﷺ الشَّاب بتوجيهات عقديَّة ومسائل من أصول الدِّين دليلٌ على أنَّ البداءة بالتَّربية الإيمانيَّة لهذه الفئة لازمٌ شرعًا وتربية، حيث تتميَّز مرحلة الشَّباب والمراهقة بروح الاندفاع والفتوَّة والاستجابة لداعي الهوى والانطلاق من كلِّ رقيب وقَيْد، فمن لم ينشأ على الإيمان والطَّاعة ووازع التَّقوى؛ جرفته الشَّهوات واستجاب للنَّزوات.

(2) الغلام هنا المراد به: الولد الصَّغير، و«يا غُليم» تصغير له.
(3) أدرك ابن عبَّاس البلوغ في حجَّة الوداع.
(4) ابن القيِّم: «تحفة المودود» (ص229).

وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ»[5]، ومعنى لا صبوة له كما قال المناوي: «أي ميل إلى الهوى لحسن اعتياده للخير وقوّة عزيمته في البعد عن الشّرّ في حال الشّباب الّذي هو مظنّة لضدّ ذلك»[6].

فالحيوية الممتلئة والطّاقة الكامنة لا يمكن التّحكّم فيها إلاّ بتسخيرها في ما يُرضي الله تعالى.

وإنّما يكون ذلك بترسيخ حبّ الله تعالى والخوف منه في قلبه أثناء تنشئته ورعايته حتّى ينمو نموًّا متوازنًا معتدلاً يكْلَؤه الله بحفظه وإحسانه.

قال ﷺ في السّبعة الّذين يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظله: «وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ»[7].

ولهذا ذهب العلماء إلى وجوب الاهتمام المبكّر بتربية الطّفل على العقيدة الصّحيحة الّتي تغرس في الطّفل القيم الإيمانيّة، وتدفعه نحو الخير، وتبعده عن كلّ ما لا يُرضي الله تعالى.

قال ابن أبي زيد القيرواني المالكي رحمه الله في مقدّمة رسالته: «فكذلك ينبغي أن يعلموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم ليأتي عليهم البلوغ، وقد تمكّن ذلك من قلوبهم وسكنت إليه أنفسهم، وأنست بما يعملون به من ذلك جوارحهم، وقد فرض الله تعالى على القلب عملاً من الاعتقادات وعلى الجوارح الظّاهرة عملاً من الطّاعات»[8].

وقال **البلوي المالكي** رحمه الله **في وصيّته لابنه عبد الرّحيم:**

إذا عقلت فقل قد ... رضيت بالله ربّا
ودين الإسلام دينًا ... والنّبيّ المنبا
محمّد قل رسولاً ... وقل نبيًّا محبًّا
ثمّ استقم واتّبعه ... تزددْ من الله قربًا[9]

(5) أخرجه أحمد في «المسند» (600/28) برقم (17371)، وقال محقّقه: «حسن لغيره»، والحارث في «مسنده» «بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث» (986/2)، وفيه ابن لهيعة، قال البوصيري: «إتحاف الخيرة المهرة» (451/7): وهو ضعيف، لكن حسّن إسناده الهيثمي في «مجمع الزّوائد» (270/10)، وأورد الألباني طريقًا له عند الروياني فيه عبد الله بن وهب عن ابن لهيعة، وصحّح إسناده، ينظر: «السّلسلة الصّحيحة» (824/6).
(6) المناوي: «التّيسير بشرح الجامع الصّغير» (529/1).
(7) البخاري في «صحيحه» (1423)، ومسلم في «صحيحه» (1031).
(8) ابن أبي زيد القيرواني: «مقدّمة ابن أبي زيد القيرواني» (ص55).
(9) البلوي: كتاب ألف باء (3/1).

وقال ابن القيّم رحمه الله:

«فإذا كان وقت نطقهم؛ فليلقّنوا لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله، وليكن أوّل ما يقرع مسامعهم؛ معرفة الله سبحانه وتوحيده، وأنّه سبحانه فوق عرشه، ينظر إليهم ويسمع كلامهم، وهو معهم أينما كانوا»[10].

وقد استند العلماء في تقريرهم لهذا الأصل إلى نصوص شرعيّة كثيرة. ومنها حديث الباب. ممّا لا يدع مجالاً للشّكّ أنّ البداءة بالعقيدة تقتضيها التّنشئة السّليمة وتُوجبها، ومن النّصوص الأخرى الدّالّة على ذلك؛ قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة].

فتوجيه إبراهيم عليه السلام بنيه إلى عبادة الله وتوحيده، ومتابعة يعقوب عليه السلام إبراهيم عليه السلام في مسلكه التّربوي مع أولاده دليل على أنّ رعاية الأولاد في التّنشئة الأسريّة ترتكز على العقيدة الّتي فطر الله النّاس عليها.

قال الألوسي رحمه الله: «تواصي الأنبياء باستمساك الدّين الحقّ الجامع لجميع أحكام الأصول والفروع ليتوارثوا الملّة القويمة والشّرع المستقيم نسلاً بعد نسل»[11].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]، فبدأ وصيّته بالتّحذير من الشّرك، ونصحه بالأساس العقدي الّذي به تصلح أحوال الإنسان وتصحّ أعماله.

قال ابن عاشور رحمه الله: «ابتدأ لقمان موعظة ابنه بطلب إقلاعه عن الشّرك بالله؛ لأنّ النّفس المعرّضة للتّزكية والكمال يجب أن يقدّم لها قبل ذلك تخليتها عن مبادئ الفساد والضّلال، فإنّ إصلاح الاعتقاد أصل إصلاح العمل»[12].

وفي السّنّة ما ورد من إرشاد الصّبيان إلى البدء ببسم الله

(10) ابن القيّم: «تحفة المودود» (ص231).
(11) الألوسي: «روح المعاني» (389/1).
(12) ابن عاشور: «التّحرير والتّنوير» (155/21).



تعـالـى في الأكل[13]، وفي ذلـك تعويـد لهـم على ربطهـم بربِّهم ـ سبحانه وتعـالـى ـ منذ الصِّغر، وكذا سـؤال النَّبـيِّ أ الجارية: «أيـن الله[14]؟ ففيـه بيـان أنَّ الطِّفـل مطالـب بمعرفـة معبوده بأسمائـه وصفاتـه وأفعاله، وما ورد عنـه أ من دعوته الغلام اليهـودي إلى الإسـلام وتركه كفر الآباء[15] دليـل على الاهتمام بالمعتقد والبداءة به.

قـال ابـن حجـر : «وفي الحديث عرض الإسـلام على الصَّبـيِّ، ولولا صحَّته منه ما عرضـه عليه، وفي قوله: «**أَنْقَذَهُ بي مِنَ النَّار**» دلالة على أنَّه صحَّ إسلامه»[16].

وورد كذلـك منعه الجارية مـن الغلوِّ في مدحـه وإطرائه[17] حيـث نسبت إليـه معرفة الغيب وهـو أمر مختصٌّ بـالله تعالى، فصحَّـح لها كلامها، وقـال لها أ : «**أَمَّا هَـذَا فَـلاَ تَقُولُوهُ، مَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إلاَّ اللهُ**»[18].

(13) بينت ذلك في الحلقة الأولى من الأطفال في بيت النُّبوَّة.
(14) أخرجه مسلم في «صحيحه» (537).
(15) كما في «صحيح البخاري» (1290) عن أنس Ç قال: كان غلام يهودي يخدم النَّبيَّ أ فمرض فأتاه النَّبيُّ أ يعوده فقعد عند رأسه فقال له: «**أَسْلِمْ**»، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: «أطع أبا القاسم أ »، فأسلم، فخرج النَّبيُّ أ وهو يقول: «**الحَمْدُ لله الَّذي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**».
(16) ابن حجر: «فتح الباري» (221/3).
(17) كما في البخاري (4852) عن الرُّبيِّع بنت معوِّذ قالت: جاء النَّبيُّ أ ، فدخل حين بُني عليَّ، فجلس على فراشي كمجلسك منِّي، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدُّفِّ، ويندبن من قُتل من أبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهنَّ: وفينا نبيٌّ يعلم ما في غد، فقال أ : «**دَعِي هَذَا وَقُولي بالَّذي كُنْتِ تَقُولِينَ**»، وروي بألفاظ مختلفة في «سنن أبي داود» و«التِّرمذي» و«ابن ماجه».
(18) ابن ماجه: «السُّنن» (1897)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (1539).

قـال ابن حجـر : «وإنَّمـا أنكر عليها ما ذكر من الإطراء، حيـث أطلق علم الغيب لـه، وهو صفة تختصُّ بـالله تعالى، كما قـال سبحانـه: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: 65]، وقوله لنبيِّه أ : ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [الأعراف: 188]، وسائر ما كان النَّبيُّ أ يخبر به من الغيوب بإعـلام الله تعالى إيَّـاه، لا أنَّه يستقلُّ بعلم ذلك، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [سُورَةُ الجِنِّ]»[19].

لم يختلـف أهل السُّنَّة في تقرير هـذا الأصل العقدي التَّربوي؛ لأنَّـه هـو الَّذي يتماشـى مع الفطـرة وطبيعة الإنسـان، قال أ : «**كُلُّ مَوْلُـودٍ يُولَـدُ عَلَى الفِطْـرَةِ، فَأَبَـوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ...**»[20]، ولم يقل يسلمانه؛ لأنَّها الفطرة الَّتي خُلق عليها.

ولمَّـا انحرف النَّاس عن فطرهم الَّتي جُبلوا عليها؛ بعث الله الرُّسل ليعيدوا النَّاس إلى ميثاق الفطرة.

قال شيخ الإسلام : «**والرُّسل ـ صلوات الله عليهم ـ بُعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها لا بتغيير الفطرة وتحويلها**»[21].

وهذا يدلُّ على أهميَّـة التَّنشئة الإيمانيَّة، حيث تُبقي الفطرة سليمـة، وتُرسخ فيها الدِّين القويم اعتقادًا وعملاً، كما يدلُّ على موافقة منهج أهل السُّنَّة والجماعة لطبيعتها.

أمَّـا المناهج المخالفة لأهل السُّنَّـة والجماعة فلا تستطيع أن تحقِّق تنشئة إيمانيَّة طبيعيَّة وفطريَّة لسببين:

الأوَّل: إقرارهم بأنَّ أصولهم الَّتي بنوا عليها مسائل الاعتقاد عقليَّة جدليَّة أو ذوقيَّة باطنيَّة وهذا لا يتناسب مع طبيعة التَّنشئة ولا يراعي متطلَّبات مرحلة الطُّفولة[22].

الثَّاني: أوجدوا منهجًا للرَّدِّ على الفلاسفة كما فعل المعتزلة، والصِّفاتيَّـة من الأشاعـرة والماتريديَّة حرَّروا منهجـًا للرَّدِّ على المعتزلة والجهميَّة والمتكلِّمـين، ممَّا يؤكِّد أنَّ طبيعة مناهج هؤلاء لا ترتكز على التَّنشئة، بل علـى الكلام والجدل؛ لأنَّهم مشغولون

(19) ابن حجر: «الفتح» (203/9).
(20) أخرجه البخاري في «صحيحه» (1385) ومسلم في «صحيحه» (2658).
(21) ابن تيمية: «درء تعارض العقل والنَّقل» (342/5).
(22) الأهواني: «التَّربية في الإسلام» (ص88ـ91)، ولمزيد من التَّوسُّع ينظر: محمد أحمد لوح: «جناية التَّأويل الفاسد على العقيدة الإسلاميَّة» (ص30ـ38).

بالـرَّدِّ على مخالفيهـم الَّذين انحرفوا عـن سبيلهم، لذلك فهم لا يحتاجـون لتربيـة الطِّفل علـى مناهجهم القائمـة على نقض المذهـب الآخر، ما دامت مباحثهم في العقليَّـات المجرَّدة، وإنَّما يخاطبـون العقـول الَّتـي لم تتقيَّـد بأصولهم من أجـل إقناعهم بسلامة معتقدهم[23].

قولـه ﷺ: «أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ»، فيه ربـط مسائل الاعتقاد بالوحـي، وفيـه أنَّ العقيدة الَّتي تستند إلى الكتـاب والسُّنَّة أمان لصاحبها من الزَّيغ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له: «يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ».

والنَّفع يكـون في الدُّنيا والآخرة، ممَّا يبـيِّن أنَّ منهج التَّربية الإيمانيَّـة عنـد أهـل السُّنَّة يقوم علـى الاتِّبـاع لا الابتداع، حيث يُربَّى النَّاشئة على الارتباط بالنُّصوص الشَّرعيَّة، والتَّعلُّق بسيرة السَّلف ومنهجهم في الاستدلال، وهذا مسلك تربويٌّ ناجح وفعَّال؛ لأنَّه يحرِّر النَّاشئة من سلطة التَّقليد لآراء الرِّجال الَّتي لا تنسجم مـع متطلَّبات الفطرة من جهة، ولا توصلـه إلى الحقِّ المبنيِّ على اليقـين والثبـات مـن جهـة أخـرى؛ إذْ العقـول يعتريهـا الخطأ والنَّقص لعـدم عصمتها وكمالها، فإذا ما اطمأنَّ الشَّابُّ إلى أنَّ هذه التَّوجيهات والإرشادات من الوحي بمنطوقه ومفهومه ازداد وُثوقًا بصحَّة عقيدته، وكان سلوكه منطلقًا من عون الله وتوفيقه ويقين بوعده سبحانه.

في قولـه ﷺ لابن عبَّاس ﭬ: «قَدْ جَفَّ القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِـنٌ، فَلَـوْ أَنَّ الخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًـا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُـوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْـهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْـهِ،وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ» دليلٌ على أنَّ مرحلة الشَّباب تحتاج إلى معرفة بالقضاء والقدر والإيمان به، والمربُّون يركِّزون في هـذه المرحلة على تقويـة إرادة الشَّـابِّ، وترسيخ قيم المبادرة فيـه، ورفع روح التَّحدِّي عنـده، والرَّغبة في التَّفوُّق على غيره، ولا شـكَّ أنَّ نجاعة تحقيق ذلك لا يكـون إلاَّ بتنمية روح الاعتماد على الله تعالى والوثوق بقضائه وقدره، والتَّعلُّق به - سبحانه وتعالى-.

وممَّا يؤيِّد هذه الحقيقة أنَّ الشَّابَّ قد يتعرَّض في هذه المرحلة إلى بعض المواقف السَّلبية الَّتي قد تفقـده ثقته بنفسه؛ من مثل شعـوره بالدُّونيَّة أمام غـيره، أو إحساسـه بمحدوديَّته في مجال ما مقارنة بأصحابـه، أو تعرُّضه للنَّقد اللاَّذع من زملائه بسبب مستواه الاجتماعيِّ والاقتصاديِّ، أو تعرُّضه للسُّخرية والهزء من أقرانـه لعاهة في جسمه أو ضعـف في نطقه، فيتولَّد عنده ردُّ فعل سلبـيٌّ ينتج عنه اكتئاب أو إحباط أو انطواء أو عدوان أو تمرُّد أو غير ذلك؛ لأنَّه فَقَد المُعين الَّذي يُقوِّي فيه ثقته في نفسه وما وهبه الله تعـالى له من نِعَـم فَضَّله بها على غيره، ولذلـك لا تعجبْ لِمَا تسمعـه وتشاهده مـن انحرافات فكريَّة أو سلوكيَّـة لدى الشَّباب في سنٍّ مبكِّرة، تؤدِّي ببعضهم إلى الانتحار أو الإدمان أو الهجرة إلى المجهول.

أمَّـا إذا كان قد ترسَّخ فيـه الإيمان بالقدر، ووَثِق بحكمة الله تعـالى؛ فإنَّه لا يأبـه كثيرًا لِمَـا يواجهه من مواقـف، وسيجتازها بـإرادة صلبـة تدفعها عقيـدة مُؤسَّسـةٌ على الرِّضـا بالله تعالى والصَّبر على أقداره؛ إذْ أيقن «أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا».

في قولـه ﷺ لابـن عبَّاس ﭬ: «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ» تربيـة للشَّابِّ على اتِّخاذ الأسبـاب والعمل بها بعد الاعتماد على الله تعـالى، وعدم التَّهاون فيها؛ وتعليم لـه أنَّ الجزاء من جنس العمـل؛ فحفظ الله الخاصّ للشَّـابِّ وولايته له مرتَّب على حفظ الشَّـابِّ لأوامر الله تعالى وحـدوده، واستجابة الله لدعاء الشَّابِّ وانفـراج أزمتـه في الضَّـرَّاء يكون بتحقيقـه التَّقـوى في الرَّخاء واليسر، ومن تربَّى على هذا المعتقد نشأ مستقيمًا متوازنًا معتدلاً بخـلاف غـيره، وشتَّان بـين الفئتـين: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: 22].

المـكان الَّذي علَّمه النَّبيُّ ﷺ الكلمـات النَّافعات الجامعات: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِـيِّ ﷺ»، والأسلوب المشوِّق الَّذي عرض به ذلك القول الحكيم، حيث استعمل أسلوب التَّشويق بقوله: «أَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ؟...»، وأسلوب التَّحنُّن والتَّنبيه بقوله: «يا غُلَيـمُ!» دلَّ على أن العقيدة ومسائل الإيمـان لا تُعْرَضُ بأساليب متنوِّعة للنَّاشئـة، ولا يُحصر تلقينها في المدارس فحسب، بل هي تربيـة إيمانيَّة ترسـخ في الأطفـال باستغلال المواقـف المتعدِّدة، وباستخـدام أساليـب متنوِّعة وجذَّابة تسترعـي اهتمام الشَّباب وتستحوذ على مشاعرهم وتفكيرهم.

(23) لمزيد التَّوسُّع ينظر رسالتي: «الوصايا التَّربويَّة» (ص270) وما بعدها.

فضاء تربوي

عبد الله بوزنون
طالب في مرحلة الماجستير في علوم الشريعة - الدويرة

جريمة الرشوة

في الشريعة الإسلامية

لقد جاءت الشَّريعة الإسلاميَّة بأحكامها وحدودها وقوانينها الرَّبَّانية لحفظ مصالح النَّاس من الضَّياع، وأموالهم من السَّلب والتَّلف، كما أنَّها حمَّلت القائم على حقوق الرَّعيَّة الأمانة الَّتي استرعاه الله للقيام بها على أتمِّ وجه، وإيصال الحقِّ إلى ذويه من غير نقص أو بخس، ولهذا حرَّم الشَّارع أكل أموال النَّاس بالباطل، سواء كان ذلك بطريق الرِّبا أو الغصب أو الرِّشوة أو غيرها، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**لاَ يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ**»[1].

وإنَّ ممَّا شدَّد الشَّرع في تحريمه، ولعن فاعله هو ذنب الرِّشوة؛ كونها تنقض عرى المجتمع، فتفسد أخلاق أهله، وتضيِّع مصالحهم، ويطمع فيهم عدوُّهم.

ولمَّا طمَّ الوادي على القَرِيِّ بانتشار هذه الآفة المشينة؛ رأيت لزامًا أن أذكِّر نفسي وإخواني بخطورة هذه المعاملة، وذلك ببيان تحريمها من الكتاب والسُّنَّة، مسترشدًا بأقوال علماء الأمَّة، فإليك أخي القارئ بيان ذلك:

• تعريف الرِّشوة:

لغةً: الرُّشْوَةُ، مثلَّثةُ الرَّاء: الجُعْلُ، جمع رُشًا ورِشًا. ورَشاهُ أعْطاهُ إيَّاها، وارْتَشَى أخَذَها، واسْتَرْشَى: طَلَبَها، وراشاهُ: حاباهُ وصانَعَه، وتَرَشَّاه: لايَنَهُ[2].

وقال ابن الأثير: «الرِّشوة: الوصلة إلى الحاجة بالمصانعة، وأصله من الرِّشاء الَّذي يتوصَّل به إلى الماء»[3].

وأمَّا اصطلاحًا: فهي ما يُعطَى لإبطال حقٍّ، أو لإحقاق باطلٍ.

وهو أخصُّ من التَّعريف اللُّغويِّ، حيث قيّد بما أعطي لإحقاق الباطل، أو إبطال الحقّ[4].

قال ابن العربي: «الرِّشوة هي كلُّ مالٍ دفع ليبتاع به من ذي جاه عونًا على ما لا يجوز، والمرتشي هو قابضه، والرَّاشي هو دافعه، والرَّائش هو الَّذي يوسط بينهما»[5].

ومن الألفاظ ذات الصِّلة بالرِّشوة:

أ - المصانعة: أن تصنع لغيرك شيئًا ليصنع لك آخر مقابله، كنايةً عن الرِّشوة، وفي المثل: «من صانع بالمال لم يحتشم من طلب الحاجة».

ب - السُّحت - بضمِّ السِّين: أصله من السَّحت - بفتح السِّين - وهو الإهلاك والاستئصال، والسّحت: الحرام الَّذي لا يحلُّ كسبه؛ لأنَّه يسحت البركة أي: يذهبها، وسمِّيت الرِّشوة سحتًا.

وقد سار بعض الفقهاء على ذلك؛ لكن السّحت أعمُّ من الرِّشوة؛ لأنَّ السُّحت كلُّ حرامٍ لا يحلُّ كسبه.[6].



(1) أخرجه الدَّارقطني في «سننه» (2863)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الإرواء» (1459).
(2) «القاموس المحيط» (ص1184) بتصرف.
(3) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (ص359).
(4) «الموسوعة الفقهية» (22/219).
(5) «عارضة الأحوذي» (6/80)، «الفتح» (5/271).
(6) «الموسوعة الفقهية» (22/219-220).

وأمَّا الأدلَّة على تحريم الرّشوة؛ فقد ورد في الكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمَّة على تحريمها.

فمن التَّنزيل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [سورة البقرة].

وقد جاء عن بعض المفسِّرين أنَّ معنى هذه الآية: «لا تصانعوا بأموالكم الحكَّام وترشوهم ليقضوا لكم على أكثر منها...، قال ابن عطيَّة: وهذا القول يترجَّح؛ لأنَّ الحكَّام مظنَّة الرّشاء إلاَّ مَنْ عصم وهو الأقل». اهـ. من «تفسير القرطبي» (340/2).

وهنا فائدة يجدر التَّنبيه إليها: وهو أنَّ الله لمَّا ذكر تحريم أكل أموال النَّاس بالباطل ـ والرّشوة منه ـ خصّها بالذِّكر بعده؛ لأنَّها «شديدة الشَّناعة، جامعة لمحرَّمات كثيرة، وللدَّلالة على أنَّ معطي الرّشوة آثمٌ مع أنَّه لم يأكل مالاً، بل آكَلَ غيره»[7].

ـ وممَّا يدلُّ على تحريمها: أنَّ الله عزَّ وجلَّ وصف اليهود بأنَّهم: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: 42]، وهاتان الخصلتان ممَّا استوجب لليهود الذَّمَّ، وعدم تطهير قلوبهم، وعدم الاستجابة لهم؛ لأنَّ هذا الوصف ذكر بعد ذكر الحكم، وهو قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة المائدة]، فكأنَّهم نالوه بسبب وصفهم.

قال ابن كثير مبيِّنًا هذا المعنى: «أي: ومن كانت هذه صفته؛ كيف يطهِّر الله قلبه؟! وأنَّى يستجيب له»[8].

والسّحت في هذه الآية ـ كما ورد عن بعض الصَّحابة أ ـ هو الرّشوة.

قال ابن مسعود Ç: «السُّحت: الرِّشا».

وقال عمر بن الخطاب Ç: «بابان من السّحت: الرّشا ومهر الزانية».

وعن ابن مسعود ـ أيضًا ـ أنَّه سئل عن السحت فقال: «الرَّجل يطلب الحاجة للرَّجل فيقضيها فيهدي إليه فيقبلها»[9].

وهنا ـ أي عند هذه الآية ـ وقفتان:

الأولى: في تسمية الرّشوة سحتًا سرٌّ لطيف وهو: أنَّها أي الرشوة تمنع صاحبها من الشبع وتدفعه إلى الجشع.

قال الفرَّاء: «أصله (أي السّحت) كلَب الجوع، يقال: رجل مسحوت المعدة أي أكول، فكأنَّ بالمسترشي وآكل الحرام من الشَّره إلى ما يُعطَى مثل الَّذي بالمسحوتِ المِعدَة من النَّهم». اهـ من تفسير القرطبي» (183/6).

وأمَّا الثَّانية: فهي أنَّ الرّشوة محرَّمة عند جميع أهل الكتاب كما في هذه الآية حيث ذمَّ الله اليهود لفعلٍ محرَّم عندهم وإلاَّ فلا لوم عليهم فيما لم يحرِّم عليهم.

قال ابن عبد البرِّ: «ولولا أن السّحت محرَّم عليهم في كتابهم ما عيَّرهم الله في القرآن بأكله؛ فالسُّحت محرَّم عند جميع أهل الكتاب»[10].

وممَّا يستأنس به في هذا الباب ما جاء في التَّوراة في «السِّفر الثَّاني» منها: «لا تقبلن الرّشوة فإنَّ الرّشوة تعمي أبصار الحكَّام في القضاء»[11].

وأمَّا من السُّنَّة فقد ورد اللَّعن والوعيد على لسان رسول الله أ في ذمِّ مقترفها؛ الآخذ والمعطي لها.

فقد أخرج التِّرمذي في «سننه» عن عبد الله بن عمرو قال: «لعن رسول الله أ الرَّاشي والمرتشي»[12].

فقد أخبر رسول الله أ أنَّ الرَّاشي والمرتشي قد نالهما اللَّعن، وهو «البعد من مظانِّ الرَّحمة ومواطنها نازل وواقع عليهما»[13].

فانظر ـ يا رعاك الله ـ هذا الوعيد الَّذي يقرع الآذان، ويهزُّ القلوب، فما بالك تشتري سخط الرَّبِّ بعَرَضٍ من الدُّنيا.



(7) قاله الطَّاهر بن عاشور، انظر: «التحرير والتنوير» (190/2).
(8) «تفسير ابن كثير» (226/5).
(9) روى هذه الأقوال الطَّبري في «تفسيره» (155/6).

(10) انظر: «التَّمهيد» (323/12).
(11) ذكره المناوي في «فيض القدير» (268/5).
(12) رواه أبو داود (3580) والترمذي (1337) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» وابن ماجه (2313)، وقال الألباني: «صحيح»، انظر «الإرواء» (2620).
تنبيه: وأمَّا الحديث الَّذي انتشر على ألسنة العوام: «لعن الله الرَّاشي والمرتشي، والرَّائش الَّذي يمشي بينهما»، فقال الألباني في «السِّلسلة الضَّعيفة» (1235): «منكر».
(13) قاله المناوي في «فيض القدير» (267/5).



وممَّا ورد في تحريم أخذ الموظَّف الهدية ممَّن ليس بينه وبين المهدي عادة التَّهادي من قبل؛ حديث رسول الله ﷺ من طريق أبي حميد السَّاعدي أنَّه قال: «**هَدَايَا العُمَّالِ غُلُولٌ**»[14].

وقوله ﷺ في حديث آخر: «**مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقًا فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ**»[15].

فهذان الحديثان يفيدان أنَّ ما أخذه العامل من مال عن طريق الهديَّة؛ فهو غلول، لا يحقُّ له أخذه.

قال الشَّوكاني مقرِّرًا لهذا المعنى: «والظَّاهر أنَّ الهدايا الَّتي تهدى للقضاة ونحوهم هي نوع من الرشوة؛ لأنَّ المهدي إذا لم يكن معتادًا للإهداء إلى القاضي قبل ولايته، لا يهدي إليه إلاَّ لغرض، وهو إمَّا التَّقوِّي به على باطله، أو التَّوصُّل لهديَّته له إلى حقِّه، والكلُّ حرام كما تقدَّم»[16].

ولهذا كان السَّلف يتوقَّون الهدايا ممَّن لهم عليهم ولاية؛ لأجل حرمتها، وينفرون عنها أشدّ ما يكون، فهذا الإمام العادل عمر ابن عبد العزيز اشتهى يومًا تفَّاحًا، فقال: لو كان عندنا شيء من تفاح؛ فإنَّه طيِّب الرِّيح، طيِّب الطَّعم، فقام رجل من أهل بيته فأهدى إليه تفَّاحًا، فلمَّا جاء به الرَّسول؛ قال عمر بن عبد العزيز: ما أطيب ريحه وطعمه، يا غلام! أرجعه وأقرئ فلانًا السَّلام، وقل له: هديَّتك قد وقعت عندنا بحيث تحبُّ، قال عمرو بن مهاجر: فقلت: يا أمير المؤمنين! ابن عمِّك ورجل من أهل بيتك، وقد بلغك أنَّ رسول الله ﷺ كان يأكل الهديَّة ولا يأكل الصَّدقة! فقال: إنَّ الهديَّة كانت للنَّبيِّ ﷺ هديَّة، وهي لنا اليوم رشوة»[17].

وأخيرًا؛ وبعد هذا البيان المقتضب عن جريمة الرّشوة، وأنَّها محرَّمة بنصوص الكتاب والسُّنَّة، بل وفي الشرائع السَّابقة، وأنَّها مجلبة للعن ولإثم الكسب الحرام؛ فعليك ـ أخي المسلم ـ بعدما تبيَّن لك شناعتها، وظهر لك قبحها؛ أن تستعين بالله على قضاء حوائجك، وتقصد السُّبل المباحة لنيلها، كما أنَّه عليك أن تستشعر الأمانة وأنت في منصبك، فلا تدنِّس نفسك بالرّشوة وتخلع عنك الأمانة؛ لأنَّ الأمانة والرّشوة لا يجتمعان في محلٍّ واحد، كما قال الشَّاعر:

إذا رشوة من باب بيت تقحَّمت ... لتدخل فيه والأمانة فيه

سَعت هربًا منها وولَّت كأنَّها ... حليم تنحَّى عن جوار سفيه

هذا ما تيسَّر لي جمعه وترتيبه، أسأله ـ جلَّ وعلا ـ أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وسبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاَّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

(14) أخرجه أحمد (23601)، وقال الألباني أنَّه حديث صحيح، انظر: «الإرواء» (246/8).

(15) أخرجه أبو داود (2943)، وقال الألباني: «صحيح»، انظر: «صحيح الجامع» (6023).

قال ابن الأثير عن معنى الغلول: «وهو الخيانة في المغنم والسَّرقة من الغنيمة قبل القسمة، يقال: غلَّ في المغنم يغلُّ غُلولا فهو غالٌّ، وكل من خان في شيء خفية فقد غلَّ. وسمِّيت غلولاً؛ لأنَّ الأيدي فيها مغلولة؛ أي ممنوعة مجعول فيها غُلّ، وهو الحديدة الَّتي تجمع يد الأسير إلى عنقه». [«النهاية في غريب الحديث والأثر» (ص676)].

(16) «نيل الأوطار» (8/ 628).

(17) «التمهيد» (125/10).



واحة الإصلاح

إعداد: أسرة التحرير

درر من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية

● أحقُّ النَّاس بالحقِّ مَن علَّق الأحكامَ بالمعاني الَّتي علَّقها بها الشَّارعُ.

[«مجموع الفتاوى» (22/ 331)]

● كما أنَّ نُور العَين لا يَرى إلَّا مع ظُهور نُور قُدَّامه، فكذلك نُور العَقل لا يَهتدي إلَّا إذا طلَعَت عليه شمسُ الرِّسالة.

[«مجموع الفتاوى» (1/ 6)]

● عذابُ الحِجاب أعظمُ أنواع العَذاب، ولذَّة النَّظر إلى وجهه أعلى اللَّذَّات.

[«مجموع الفتاوى» (1/ 27)]

● وتجدُ الإسلامَ والإيمانَ كلَّما ظَهَر وقَويَ كانت السُّنَّة وأهلُها أظهَرَ وأقوى، وإنْ ظهَر شيءٌ من الكُفر والنِّفاق ظهَرت البدعُ بحَسَب ذلك.

[«مجموع الفتاوى» (4/ 20)]

● فما لا يكونُ بالله لا يكونُ، وما لا يكونُ لله لا ينفَعُ ولا يدومُ.

[«مجموع الفتاوى» (8/ 329)]

● كلُّ مَن كانَ عن التَّوحيد والسُّنَّة أبعَد كانَ إلى الشِّرك والابتداع والافتراء أقرَب.

[«اقتضاء الصراط المستقيم» (ص391)]

● كلُّ ذي مقَالَة فَلَا بدَّ أَن تكونَ في مقَالته شُبهَةٌ منَ الحقِّ، ولوْلَا ذلك لَمَا راجَت واشتَبَهتْ.

[«جامع الرَّسائل والمسائل» (2/ 401)]

مناسبة لطيفة

● قال الحافظ ابن حجر : في شرحه لحديث ابن عبَّاس È عن النَّبيِّ أ أنَّه مرَّ بقبْرَيْن يُعذَّبان، فقال: «إنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وما يُعذَّبَان في كَبير؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ».

«أبدى بعضُهم للجَمع بين هاتين الخصلتَين مناسبةً، وهيَ أنَّ البَرزخ مقدِّمةُ الآخرة، وأوَّلُ ما يُقضى فيه يوم القيامة من حقُوق الله الصَّلاة، ومن حقُوق العباد الدِّماء؛ ومفتاحُ الصَّلاة التَّطهُّر من الحَدَث والخَبث؛ ومفتاح الدِّماء الغيبة والسَّعي بينَ النَّاس بالنَّميمة بنَشْر الفِتن الَّتي يُسفَك بسبَبها الدِّماءُ».

[«فتح الباري» (10/472)]

عذر الإخوان

● قال أبو قلابة الجُرمي : :

إذا بلغَك عن أخيك شيءٌ تكرهُه فالتَمس له العُذرَ جُهدَك، فإنْ لم تَجد له عُذرًا، فقُل في نفسك: لعلَّ لأخي عُذرًا لا أعلَمُه.

[«الحلية» (2/285)]

بريد القراء

ردود قصيرة:

- الشكر موصول إلى كل من الأحبة التالية أسماؤهم على تواصلهم: بلقاسم حفيفة من منطقة حمادي ببومرداس، وسليمان مشري من الجلفة، وأمين طالبي من الحراش، وموسى حفيفة من منطقة مجدل بالمسيلة، ويحيى فاضل من مدينة العطاف بولاية عين الدفلى.
- الأخ زروقي بن علي - سدَّده الله - نعلمه أنَّ اقتراحه مأخوذ بعين الاعتبار وبارك الله فيه.
- الأخ عبد الله المغيري من واد سوف أرسل عن طريق البريد الإلكتروني ترجمة للشيخ عبد المجيد حبَّة لكنَّها منقوصة، فلو يتفضَّل بإعادة إرسالها تامَّة، ومقرونةً بمعلومات حول صاحب المقال كما هو مشروط في قواعد النَّشر.
- نشكر الأخ عبد الغني قادري -وفقه الله- من العاصمة، على غيرته على عقيدة التَّوحيد تأسُّفه على مظاهر الشِّرك عند القبور والأضرحة، ونعلمه أنَّ طلبه لم نغفل عنه يوما ما، وجزاه الله خيرا.
- كما يشكر الأخ يوسف بلقاضي - حفظه الله - على شكره وعرفانه، وجزاه الله خيرا على ما خطته يده.
- كما نوجه الشكر الجميل للأخ لحسن لطرش - وفقه الله - من منطقة عين أزال بولاية سطيف، على مراسلته وكلماته الجميلة، وبارك الله فيه على اقتراحه.
- ونشكر كثيرا الأخ المكرَّم توفيق ميري - بارك الله فيه - من عين بوسيف بالمدية على كلمته الرَّقيقة الَّتي سمَّاها: الشُّكر لأهل الشُّكر، فجزاه الله عنا كلَّ خير.
- ونشكر الأخت الفاضلة فاطمة والبشير - وفَّقها الله - من مدينة تيارت على عباراتها اللطيفة وكلماتها الرقيقة ونسأل الله لنا ولها التوفيق والسداد.



نتقدم بالشكر الموفور للأخ عبد العزيز للوم - وفقه الله - على أبياته التي أثنى فيها على المجلة ويحثُّ فيها على اقتنائها والاستفادة منها، ومطلعها:

شعرٌ أنظمُه بمهارة ... في مجلة تهدي كمنارة

يحوي وصفا فيه وقائع ... أكتبُه حثًّا لمُطالِع



- كما نشكر الأخ الكريم توفيق بن عيسى من دائرة تاجنانت بولاية ميلة على محاولته الشعرية الثَّانية جاءت في (15) بيتا تحت عنوان: رسالة على مفت الجرائد، ومطلعها:

لا أنتَ شمسٌ ولا للدِّين تنتَسبُ

ولا لشيءٍ من الأخلاق تكتسبُ

ولا لعرف ومعروف عرفتهما

بل إنَّك النار للأعراف تلتهبُ

أنتَ المدلِّسُ والإعلام غايتُك

والعلمُ عندك ما زاغَت به الكتبُ

إلى آخر الأبيات، فبارك الله فيه وسدَّد قلمه.